صاحبها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش
MADHAT AKKACHE

الثقافة
مجلة ثقافية أدبية شهرية
دمشق ـ ص٠ب ٢٥٧٠ هاتف ١٦٢٩١

العدد العاشر
آذار ( مارس )
١٩٦٢
السنة الرابعة


# الأدب العربي تجاه مشكلتي اللغة والحرف

بقلم : الدكتور ابراهيم مدكور

١ ـ للغة سلطان وقداسة تستمدهما من وحي السماء ، أو من اجماع أهل الارض • وقديما قالوا انها توقيفية أوحى بها الله الى عباده ليتفاهموا ويتعارفوا ، « وعلم آدم الاسماء كلها » • ويزيدها قداسة أن تصبح لغة الطقوس والعبادة ، أو أن ينزل بها كتاب سماوي يهبها من قداسته ، ويضفي عليها من هيبته • وليس ثمة شك اليوم في أنها ظاهرة اجتماعية ، تنشأ في قلب المجتمع ، وتحيا بحياته • فلها ما للظواهر الاجتماعية من سلطان وحرمة وعزة وكرامة ، وتعد بحق في مقدمة مشخصات الامم والشعوب •

وقد عولت العربية على هذين المنبعين ، فهي لغة الدين والدنيا ، والعبادة والسياسة • بها نزل القرآن ، وبها حفظ ، ونشأت حوله دراسات لغوية متنوعة •وهناك طقوس دينية لا بد للمسلم أن يستخدم فيها ألفاظا وجملا عربية ، كيفما كانت لغته الوطنية • ويوم أن أخذالعرب في بسط نفوذهم ، أخذت العربية تنتشر معهم ، فكانت تدرس في أصبهان وشيراز ، كما كانت تدرس في دمشق وبغداد ، وظهر كتاب وشعراء في قرطبة والحمراء ، كما ظهروا في القاهرة والقيروان • وأضحت اجادة اللغة العربية بابا هاما من أبواب التنافس ، ووسيلة من وسائل الرقي والسؤدد •

ولقد أفادت العربية كثيرا من جانبيها الديني والاجتماعي • واكتسبت مناعة وقتها حملات الخصوم والاعداء ، وحمتها من جموح التغير والتبديل •

وبقيت على الدهر بحيث أصبحت لغةقديمةوحديثة معا ، « انا نحن نزلنا وانا له لحافظون » • الا أن هذه القداسة كثيرا ما وقفت في طريق الاصلاح والتجديد ، واعترضت سبل النمو والتطور • فقيل بالحرام والحلال في أمور تتصل بمتن اللغة وأساليبها وكتابتها ورسمها ، كما قيل بهما في الحكم على أقوال الناس وأفعالهم • ومع هذا فالزمن يسير ، ولا بد أن تسير اللغة معه ، وربما كان لدعوى القداسة والحرمة أثر في التأني في التجديد والتروي في الاصلاح ، مما يربط الحاضر بالماضي ، ويساير التطور دون طفرة •

٢ ـ والادب حياة اللغة ، يساهم فيه المتحدث والكاتب ، الناثر والشاعر ، الخطيب والصحفي ، المذيع

والممثل ، الاديب والعالم ، الشعب والخاصة ، فهو جملة الانتاج الادبي في لغة ما • يتأثر دون نزاع بالاحداث السياسية والظروف الاقتصادية والاجتماعية ، ويصور الحياة الدينية والاخلاقية • يبتلي بالجمود أحيانا ، ثم ينشط ويتحرك • يأخذ ويعطي ، فيتغذى من الآداب الاجنبية ويغذيها • وهو متنوع يختلف من عصر الى عصر ومن بيئة الى أخرى • فهناك أدب قديم وأدب حديث ، أدب ريفي وأدب حضري ، أدب ديموقراطي وأدب أرستقراطي •

والاديب الحق مبدع ومبتكر ، بقدر ما هو مقلد ومحاك ، يبتكر ألفاظا وأساليب ، كما يبتكر أفكارا وأخيلة • ينهج نهج القدامى ويحذو حذوهم ، في الوقت الذي ينافس فيه المعاصرين ويحاول أن يجدد مثلهم • وأنصار الادب القديم أنفسهم لا يرضون أن تنسى شخصيتهم ، وتفنى أساليبهم فيمن سبقنهم • وأعز شيء لدى الاديب حريته ، فيحرص على أن يكون حرا في تفكيره ، يرسل أحاسيسه ومشاعره كما تبدو له ، حرا في تعبيره يصوغ معانيه على النحو الذي يروقه • ولا يضيره أن يخرج أحيانا على بعض قيود النحو واللغة ، وربما فتح خروجه بابا لنحو ولغة جديدة •

وهكذا كان الادب العربي ولا يزال ، تنوع بتنوع العصور ، وسار بسير الزمن ، علا وهبط ، قوي وضعف • ومن الخطأ أن نقف به عند عصر بعينه ، أو أن نقصره على بيئة بذاتها • تأثر بالآداب الاجنبية وأثر فيها ، وكانت له حياة مستقلة وتاريخ متصل • ويربأ أدباء العرب بأنفسهم عن أن يكونوا مجرد نقلة أو محاكين ، ويأبون الا أن ينالوا حظهم من الاصالة والابتكار

٣ ـ الادب مادة اللغة ، منه يستمد متنها ، وعليه يقوم نحوها وصرفها • وقد عني الرواة قديما بجمعه ، كما عنوا بجمع اللغة نفسها • وأبلوا في ذلك بلاء حسنا ، وان لم يسلموا من الحشو والخطأ • لا سيما والعرب في جاهليتهم كانوا يعيشون قبائل وجماعات ، لكل قبيلة لهجتها ونطقها ، وظروفها وبيئتها ، وأوضح ما يكون هذا الخلاف بين القبائل العدنانية في الحجاز والقحطانية في اليمن • فكانت تستعمل الكلمة الواحدة في عدة معان ، أو يعبر عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة باختلاف البيئات، مما أدى الى تباين المعاني للفظ الواحد ، وكثرة المترادفات وتعدد قراءات القرآن • وما ان فتحت الاقطار شرقا وغربا ، وتوطدت الصلة بالثقافات الاجنبية ، وبسطت الحضارة الاسلامية ألويتها ، حتى أخذت العربية تغذى بغذاء جديد لم يأنفه العرب ولم يرهبوه • وكانت ثقتهم بأنفسهم كفيلة بأن يأخذوا الجديد على صورته ، أو يؤقلموه ويصوغوه نوعا على حسب قواعدهم • واستمروا كذلك حتى جاء عصر الركود ، فكان الجمود والافلاس والتحريم والتحليل • ويوم أن بزغ عصر النهضة الحديثة ، استعادت العربية ثقتها بنفسها ، وبدأت تتقبل الالفاظ والتراكيب الجديدة غير هيابة ولا مترددة •

عني العرب عناية بالغة بجمع لغتهم وتسجيلها ، فتلقفها الرواة من البادية ، وأعدوا بذلك المادة الضرورية لوضع المعاجم اللغوية • ولا نظن أن لغة ما ـ قديمة أو حديثة ـ توفر لها من المعاجم ما توفر للعربية • ففي القرن الثاني للهجرة افتتح الخليل بن أحمد عصر المعاجم الكبرى ، ثم تنافس اللغويون والنحاة بعده في تأليف معاجم مختلفة الحجم والمنهج • ولا يكاد يوجد قرن لم يوضع فيه معجم عربي جديد ، بل ربما وضع في القرن الواحد أكثر من معجم • ويعد القرن الرابع الهجري القرن الذهبي للمعاجم ، ففيه ظهر معجم ابن دريد ( ٣٢١ هـ ) ، والازهري ( ٣٧٠ هـ ) ، والصاحب بن عباد ( ٣٨٥ هـ ) ، وابن فارس ( ٣٩٥ هـ ) ، والجوهري ( ٣٩٧ هـ ) • واذا كان قد فقد بعض المعاجم العربية ، فان أغلبها وصلنا ، ومعظمها منشور ومتداول ، ومن بينها ما ترجم الى لغات أجنبية •

ولا شك في أن هذه المعاجم غزيرة المادة كثيرة المعلومات ، وستبقى على الدهر معينا لا ينضب لتوضيح

غـريب الكلمات وغامض النصوص • ولكنها تلتقي في عيوب مشتركة : من غموض في الشرح ، وخطأ بعض التعاريف ، لا سيما وقد عرضت لمواد تبعد نوعا ما عن اللغة كالتاريخ والجغرافيا والحيوان والنبات ، وقد تغير فيها وجه العلم • وكثيرا ما كرر بعضها بعضا دون تنقيح أو تهذيب ، ويصرح صاحب لسان العرب ، أكبر معجم وصلنا ، بأنه لم يصنع شيئا أكثر من أنه جمع ما ورد في تهذيب الازهري ، وصحاح الجوهري ، ومحكم ابن سيده ، وحواشي ابن برى على الصحاح ، ونهاية ابن الاثير • وفوق هذا فمنهج هذه المعاجم ناقص ومعيب : ـ ناقص لانهـا وقفت باللغة عند حـدود زمانية ومكانية ضيقة ، ففقدت كثـيرا من معالم الحياة والتطور • فهي توضح العربية في الجاهلية وصدر الاسلام ، وتكاد تنكر ما عداها وبذا لا تمثل عصور اللغة كلها ، بل ولا العصر الذي وضعت فيه • ومنهجها معيب أيضا لا تتوفر فيه شرائط فـن المعاجم الحـديث من حسـن الترتيب ، ووضوح الشرح ، ودقة المعنى والاستعانـة بالصـور والخرائط واللوحات • ففي الرجوع اليها عناء ومشقة ، وفي عرضها حشو واستطراد ، وأصبحت لا تواجه تماما حاجة العصر ومقتضياته •

ولقد حاول بعض اللغويين منذ أخريـات القرن الماضي تدارك هذا النقص ، فوضع البستاني محيط المحيط ، والشرتوني أقرب الموارد ، والاب لويس معلوف المنجد • وهم فيما يبدو متأثرون بالمعاجم الغربية الحديثة ، والمنجد بوجه خاص محاكاة صادقة لمعجم لاروس الصغير • وهو في الواقع قاموس عملي ، سهل المأخـذ ، غني بوسائل الايضاح ، ولا أدل على ذلـك من أنه أعيد طبعه ست مرات في أقل من عشرين سنة ، وفي الطبعة الاخيرة قسم كبير في الادب والعلوم ، على غرار لاروس ، الى جانب القسم اللغوي • ولكن هذه المعاجم الحديثة لم تستطع التخلص من قيود الماضي ، ولـم تجرؤ على أن تسجل شيئا من لغـة القرن العشرين ، واكتفت بـأن تلخص المعاجم القديمة في ترتيب أحسن ومنهج أقوم •

ويوم أن أنشىء مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٣٤ نص في مرسوم انشائه على أن من أهم أغراضه : « أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية » ، وقـد أخذ نفسه بذلك منذ البداية • وكان من بين أعضائـه المستشرق الالماني فيشر الذي عنى بالمعجم العربي منذ أوائل هذا القرن ، ورغب في أن يخرجه على غـرار معجم اوكسفورد التاريخي ، فيصعد الى النصوص لتوضيح معاني الكلمات ، ويتتبع تاريخها وتغير مدلولها • وهي محاولة شاقة ، وشبه متعذرة الآن على الاقل ، لان العربية أطول تاريخا من الانجليزية ، وأكثر مصادر ومن بين مصادرها ما فقد أو ما لا يزال مخطوطا • ومع هذا بذل فيشر فيهـا جهودا مضنية وشـاء أن يتوجها بأن يخرج « معجمه » تحت كنف المجمع اللغوي ورايتـه ، ولـم يتردد المجمع في ان يجيبه الى مـا طلب ، وأن يمـده بوسائل العون المختلفة • الا ان الحرب العالمية الثانية وقفت في طريقه ، ولـم نلبث أن فقدناه بعدها بقليل ، وقبل أن يخرج « معجمه » الى النـور • ولـم يبق من جهود أربعين سنة الا جذاذات غير مكتملة وغير مستوفاة ، ويحتفظ بها المجمع في قاعة خاصة تحت تصرف الباحثين •

اضطلع المجمع الى جانب هذا بوضع « معجم كبير » يستوعب اللغة في مختلف عصورها ، ظهر منه منذ خمس سنوات جزء كبير أريـد به أن يكون تجربة يستطيع المتخصصون في اللغة أن يبدوا عليها ملاحظاتهم • ومن أهم ما قرر في مقدمة هذا الجزء أن للغة ماضيا وحاضرا ، فلها ماضيها الموروث ، وحاضرها الحي الناطق ، ولا بد أن يلاحظ ذلـك في وضع معجم جـديد » « فيستشهد بالشعر والنثر مهما يكن العصر الذي أنشىء فيه ، وتثبت الالفاظ الطارئـة التي دعت اليهـا ضرورات التطور ، وفرضها تقدم الحضارة ورقي العلم » • ولا يزال المجمع يوالي جهوده لاخراج هذا « المعجم الكبير » •

عنى المجمع أيضا منذ زمن بوضع « معجم وسيط » ، سهل التناول ، ينتفع بـه طـلاب العلم ، وييسر عليهم تحصيل اللغة ، وتوفر له ما أراد • ويقع هذا المعجم في

جزئين ظهر أولهما في أواخر العام الماضي ، والثاني على وشك الظهور ، ويحتوي على نحو ٣٠ ألف مادة ، ومليون كلمة ، وستمائة صورة • وقد أخذ بحظ وافر من فن المعاجم الحديث ، فهو محكم التركيب والتبويب ، يسير الشرح ، دقيق التعاريف ، يكتفي من الشواهد بما تدعو اليه الضرورة ، في غير غموض ولا تعقيد • يسجل ما استقر من ألفاظ الحياة العامة ، والمصطلحات العلمية الشائعة،ويقر كثيرا من الالفاظ المولدة والمعربة الجديثة، ويهجر الحوش والغريب •

فالمعجم العربي في تجدد وتطور شبيه بتطورالمعاجم الغربية ، يأخذ بأحداث مبادىء الفن المعجمي ، ييسر اللغة • يراد به أن يضع ألفاظ القرن العشرين الى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الاسلام ، وأن يهدم الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت خطأ بين العصور اللغوية المختلفة وفي هذا ما يثبت أن في العربية وحدة تضم أطرافها ، وحيوية تستوعب كل ما اتصل بها وتصوغه في قالبها • وقد بذلت في ذلك جهود لا بأس بها ، وظهرت معاجم مصطلحات الى جانب المعاجم اللغوية ، ولكن لا يزال الامر يتطلب جهودا أخرى وقسطا أوفر من الجرأة والتحرر •

٤ ـ اللغة تعبير عن وجدانات وأفكار بواسطة أصوات ودوال أقرها المجتمع وأخذ بها ، فعناصرها وجدان وعاطفة ، فكر ورأي ، بيئة ومجتمع ، أو ان شئت مدلولات ودوال • وكلها متغيرة ومتحركة ، فالوجدانات والعواطف في نشوء وارتقاء لدى الافراد والجماعات ، والافكار تنمو بنمو العلم والدراسة ، وتتجدد بتجدد الكشف والاختراع • والحياة في تبدل وتغير ، فمن همجية الى آخذة في التحضر ، ومن نصف متحضرة الى موغلة في الحضارة المدنية • وكلما اكتملت حضارة أمة تعددت مرافقها ، وتنوعت اتجاهاتها ، وكثرت حاجاتها ، وأضحى لزاما ان تسايرها في كل ذلك لغتها ، فتزيد مفرداتها ، وتتنوع تراكيبها ، وتسمو أساليبها ، وتتباين فنون القول فيها •

ولم تصل العربية الى ما وصلت اليه في عصر المعلقات ، من غزل امرىء القيس ، وحماس مهلهل ، وفخر ابن كلثوم الا بعد أن مرت بأدوار ومراحل أعداد وتكوين طويل • ثم جاء الاسلام فهذب حواشيها ، ورقق عباراتها ، وصقل ألفاظها ، واستمرت تنمو لفظا ومعنى طوال قرون عدة • ولكن الزمن يهدم ما بنى ، فدخلها الغريب والفاسد وأخذت تركد ركود المتخاطبين بها • وما ان حل النصف الاخير من القرن الماضي حتى عادت تنشط وتنهض ، وتسلك سبل الحياة في حماس وقوة •

ووسائل انهاض اللغة وتطويرها كثيرة ، أخصها الوضع اشتقاقا وتجوزا وارتجالا ، اطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس ، تحرير السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما نسمع اليوم من طوائف المجتمع كالحدادين والنجارين والبنائين ، التسليم بالتعريب والاعتداد بالالفاظ المولدة وتسويتها بالالفاظ المأثورة • وقد أخذ قديما بمختلف هذه الوسائل فاستباح العرب الوضع في مختلف صوره ، وقبلوا كلمات أجنبية أضافوا بها ثروة جديدة الى لغتهم فمثلا يستعمل الاعشى كلمة « شاهنشاه » ، والسموأل كلمة « السجنجل » ، وفي الامكان حصر الكلمات المعربة فيما وصلنا من أدب جاهلي • وفي القرآن كلمات معربة كثيرة ، مثل زنجبيل وسلسبيل • أما الاشتقاق والقياس فلم يكن هناك ما يقيدهما ، وكان العربي ينطق على سليقته فكان نطقه حجة • وساعد الفتح والاختلاط على التعريب والاشتقاق معا ، ودفعت اليهما الترجمة وانتشار العلم • وهناك ألفاظ عربية أو معربة اسلامية لم تعرف في الجاهلية من قبل ، ولم يستنكرها أحد أو يرفضها • ويوم أن ضاقت العقول بدأ التحليل والترحيم ، فأصبح التعريب ممنوعا ، وحرم الوضع على المتأخرين •

ولقد استطاع مجمع اللغة العربية أن يفك كثيرا من هذه القيود ، ويطلق سراح اللغة فقال بالتضمين ، والنقل ، والمجاز ، والتعريب ، وأجاز الاشتقاق من أسماء الجواهر والاعيان ، كما أجاز النسبة الى جمع التكسير •

وتوسع في المصدر الصناعي ، وأقر صيغا للدلالة على الحرف والمرض والصوت • وفتح في اختصار باب الاجتهاد في اللغة ، وكان موصدا من قبل • ولم يقنع بأن يسجل ما أقره الادباء والعلماء بل شاء أن يوجه نحو تطوير اللغة والنهوض بها • وكان لتوجيهه أثره ، وتبارى الكتاب في التجديد والابتكار • والواقع أن مستحدثات الحضارة والعلم لا تنقطع ، ولا حياة للغة الا أن واجهتها ، وعرفت كيف تؤديها على وجهها •

٥ ـ لم تخل الكتابة ـ بدورها ـ من طابع ديني ، فقيل انها من وحي الهي ، عزاها المصريون الى الاله توت ، واعتقد العبرانيون أن موسى تلقاها عن الله ، وقال بعض مؤرخي العرب انها توقيف من آدم ، ولا تزال حتى اليوم مرتبطة بالسحر في أرقى الشعوب حضارة • واذا كان للكلمة الملفوظة قوة سحرية ، فالكلمة المكتوبة بها أولى ، ومن ثم كان الكتبة الاول من السحرة • وما ان اختلطت الكتابة بالحياة المدنية وصارت في متناول عامة الناس ، حتى أخذت تتطور بتطور الزمن • قامت أولا على الصور والاشكال ، ثم تحولت الى رموز وحروف وان لم تفقد اعتبارات الرسم والفنون الجميلة • وأضحت لغة الى جانب لغة النطق ، ومن بيننا من يتفاهمون بالكلام • ولا سبيل لتعليم بدون قراءة وكتابة ، والصورة الذهنية لكلمة أكثر ارتباطا برسمها منها بنطقها •

وقديما قال فولتير ان « الكتابة صورة الصوت ، كلما كانت أكثر شبها به كانت خيرا » فالكتابة المثلى هي التي لا تدل بالحرف على أكثر من صوت ، ولا تضع للصوت الواحد أكثر من حرف ، ولم نصل اليها في لغة ما • ففي اللغات الحية جميعا ما يكتب ولا ينطق ، وما ينطق ولا يكتب ، وفيها حروف تؤدي عدة أصوات ، وأصوات تؤدي بعدة حروف • ويزيد الامر تعقيدا تفنن النحاة والصرفيين ، وبعض المخلفات التاريخية التي قضت بكتابة كلمات على وجه معين دون أن يتصل ذلك بنطقها الحديث • وكلما اتسعت مسافة الخلف بين اللغة الدارجة والفصحى ، تعقدت مشكلة رسم الحروف • ويحاول المصلحون دائما تدارك هذا النقص ، وكثيرا ما تعذر عليهم ذلك ، تحت ضغط العرف والتقاليد ولان لغة النطق أسرع تطورا في حين أن لغة الكتابة أكثر محافظة •

والخط العربي نبطي الاصل ، يشبه الكتابة النبطية في رسمها ، واتخاذ شكلين للحرف في أول الكلمة وآخرها ، واستعمال الفواصل ، وربط الحروف بعضها ببعض نشأ ونما الحجاز حيث التجارة والحضارة والسيادة ثم انتقل الى أجزاء الجزيرة الاخرى • وكانت حروف الهجاء ثمانية وعشرين ، مرتبة في أغلب الظن على حسب الترتيب الابجدي • وقد حث الابجدي • وقد حث النبي الامي على تعلم الكتابة ، وقبل أن يفتدى أسرى بدر أنفسهم بأن يعلم كل واحد منهم عشرة صبيان مسلمين الكتابة ، وكان للوحي كتاب كثيرون • ولكن الكتابة لم تنتشر الا بعد أن مصرت الامصار ودونت الدواوين ، وتبارى الخطاطون في اجادة الخط ، وكان منهم الوزراء والمحدثون والمؤرخون • وتفننوا فيه فجعلوا منه نسخا ، وثلثا ، ورقعة ، وكوفيا ، وفارسيا ، وأصبح في مقدمة الفنون الجميلة العربية • ودبجت به المصاحف ، وزينت الحوائط والسقوف ، وأعدت منه لوحات آية في الجمال • وتنافس الملوك والامراء في أن يتوفر لديهم أحسن الخطاطين ، وأن يقتنوا أروع ما انتجوا • ولم يقف الخط العربي عند جزيرة العرب وحدها ، بل امتد الى بلاد أخرى في آسيا وافريقيا وأوروبا ، وسار مع الاسلام أينما سار • فاستعمله الفرس والترك والهنود والملايو والمصريون والمغاربة ولغات مختلفة من افريقيا ، ويكاد يصعد عدد الشعوب التي تستخدمه الى نحو ٢٥٠ مليون نسمة •

ومنذ عهد مبكر ظهر أن الحروف وحدها لا تكفي في التعبير عن الاصوات وضبط النطق ، خصوصا بعد أن اختلط العجم بالعرب ، وضعفت السليقة ، وبدأت تبعد المسافة بين اللغة الدارجة والفصحى • والعربية لغة اعراب ، يتغير فيها معنى الكلمة بل ومعنى الجملة بتغير النطق ، وكم تحدث أبواب الفعل الثلاثي ومصادرة من لبس ، وقد تختلط الاسماء المبنية والمعربة والمصروفة

والممنوعة من الصرف • فالتجىء الى الشكل بوضع نقطة فوق للفتحة ، ونقطة أسفل للكسرة ، ونقطة على شمال الحرف للضمة ، واهمل السكون • ثم تحولت هذه النقط الى حروف صغيرة ، ولوحظ كتابتها بلون غير لون الحروف نفسها • وزيادة في الضبط وتفرقة للحروف المتشابهة رسما بعضها عن بعض استخدام الاعجام ، فنقطت الجيم والخاء مثلا وأهملت الحاء ، وعلى أساس هذا الاعجام رتبت حروف الهجاء على النحو المألوف اليوم • وعلى هذا عدل الخط العربي وهذب وضبط ، تبعا لحاجات العصر ومقتضياته •

ولا شك في أن رسم المصحف وضبطه كان الشغل الشاغل ، ولم يحس أبو بكر وعثمان عند جمعهما للقرآن بحاجتهما الى نقط أو شكل ، ولكن ما لبث المسلمون ان تبينوا ضرورة ذلك • وكتب القرآن برسم أريد به أن يكون تعبديا ، وان لم يتفق مع الهجاء وقواعد الاملاء • وأصبح أثرا تاريخيا اجتمع لنا به كتابتان : _ احداهما قرآنية ، والاخرى غير قرآنية • وزاد الامر تعقيدا قواعد رسم الهمزة والالف اللينة التي يلاقي فيها المبتدئون من التلاميذ عنتا شديدا ، بل والمستهدفون • وهناك أعلام وكلمات أعجمية معربة تشمل على أصوات لا وجود لها في العربية ، وكثيرا ما خلط العرب في نطقها ، ولعل ابن خلدون من أقدم من تنبهوا الى ذلك وحاولوا معالجته • وفيما عداه لم تلفت هذه الصعاب النظر ، وبقيت الكتابة العربية وكأنها براء من كل عيب ، لها قداسة تحول دون التفكير في تهذيبها واصلاحها •

٦ _ وفي أخريات القرن الماضي أثيرت صعاب الكتابة العربية ، على غرار ما أثير حول الكتابة الفرنسية والانجليزية في الغالب ، ولا سيما وقد بعدت الشقة بين الدارجة والفصحى بعد ان دفع فريقا من الناس الى الدعوة الى العامية والانتصار لها • وفوق هذا في اصلاح الكتابة استجابة لمقتضيات تعليم الشعب ومحاربة الامية ، ذلك لان الكتابة لم تعد بعد وقفا على ارستقراط فكرية أو اقتصادية كما كانت في الماضي ، بل أضحت حقا مقررا للجميع ، وينبغي تيسيرها ما أمكن والناس عادة أمام الاصلاح فريقان _ محافظون يرون أن ليس في الامكان أبدع مما كان ، ومجددون يلاحقون سير الزمن • وهؤلاء بدورهم متطرفون يأبون الا أن يقطعوا الشوط دفعة واحدة ، أو معتدلون يذهبون الى أن طبيعة الاشياء تأبى الطفرة ، ولا بد أن يسير الاصلاح في تدرج وهوادة • ولقد صادفتنا في نصف القرن الماضي مشاكل لغوية متعددة ، وفي مقدمتها دون نزاع مشكلة الكتابة التي كانت ولا تزال موضع أخذ ورد •

وقدمت لها حلول شتى تتلخص في اتجاهين رئيسيين يرمي احدهما الى احلال اللاتينية محل الكتابة العربية ، ويحاول الآخر أن يعد لها على نحو يعالج ما فيها من غموض أو لبس • وليس القول بالحروف اللاتينية جديدا ، فقد عرض في أخريات القرن الماضي ، وأكد داود الحلبي في العقد الاول من هذا القرن ، وشجعت عليه تجربة الاتراك وان اختلف وضع لغتهم كثيرا عن العربية • وظهر في هذا العام كتاب « يارا » ، الذي شاء به الاستاذ سعيد عقل أن يطبق الحروف اللاتينية على الكتابة العربية تطبيقا عمليا • ولكن أحدا لم يدرس هذا الموضوع دراسة المرحوم عبد العزيز فهمي عضو مجمع اللغة العربية ، وليس في مكنة كثيرين أن يدافعون عنه دفاعه ، ومع ذلك لم يعد بالقبول •

والواقع أن مجمع اللغة العربية عنى منذ ربع قرن بتيسير الكتابة العربية ، وأعد جائزة مالية لاحسن اقتراح فيها • ووصلته عشرات الاقتراحات التي قضى زمنا في بحثها ، ولم يرتض واحدا منها • وفي مقدمة ما عرض عليه مشروع عبد العزيز فهمي ، الذي وقف عليه دورة كاملة من دورات مؤتمره • ودون أن ندخل في تفاصيله ، نكتفي بأن نشير الى أنه لا يقنع بمجرد ابدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ،

بل يلاحظ ان هناك أصواتا خاصة بالعربية ويحاول أن يؤديها بحروف لاتينية مركبة على نحو ما صنع المستشرقون من قبل • واذا كنا « نفهم لنقرأ » على غير ما ينبغي ، يزعم أن مشروعه ينتهي بنا الى الوضع السليم وهو أن « نقرأ لنفهم » ، وهو بهذا يصوب الى معالجة مشكلتي الكتابة والقراءة معا • ولقد رد عليه داخل المجمع وخارجه ، ومن أهم ما أخذ على اقتراحه أنه يقطع الصلة بالماضي ، لمستقبل غير موثوق به • فان الحروف اللاتينية لا تتلاءم مع طبيعة العربية بغية الاعراب والصرف ، هذا الى انها أقل اختزالا من الحروف العربية وتشغل حيزا أكبر ، ونحن نعيش في عصر السرعة ، ولها أخيرا صعوباتها ، وليس ثمة كتابة تخلو من صعوبات • وما صنعه الاتراك لا يقاس عليه ، لان لغتهم أضيق مجالا وأقل استعمالا ، وماضيها لا يذكر في شيء بجانب ماضي اللغة العربية ، وليست لها كتابة خاصة بها تحاول العدول عنها • وجاء أخيرا كتاب « يارا » دليلا عمليا على أن التجربة اللاتينية غير ناجحة ، فانه لا يقرأ ولا يفهم قبل أن يعرب •

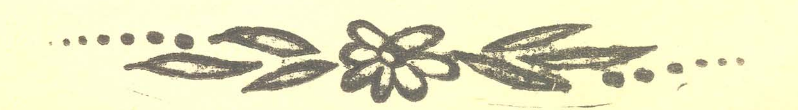
أما المقترحات الاخرى فتبقى كلها على الحروف العربية معدلة رسمها ، أو مدمجة للشكل كما هو في جسم الحرف ، أو مستعملة حروف العلة بدلا منه • ولم يكن غريبا أن يرفض كل هذا ، لانه فضلا عما فيه من تنكير لا يحقق شيئا من التيسير •

واستمر المجمع يقلب الامر على وجوهه ، وآثر أن يدع مؤقتا الكتابة اليدوية ، ويشغل خاصة بحروف الطباعة والآلات الكاتبة • وتبين له ان في الامكان اختصار صور الحروف بتمثيل الحرف بصورة واحدة ما أمكن على اختلاف مواقعه من الكلمة ، مع الاحتفاظ بطبيعة الخط العربي وفنه وتجنب المباعدة بين القديم والتجديد ولم يفته أن يعالج صور الهمزة وكتابة الارقام وعلامات الشكل والترقيم ، وأدخل عليها كثيرا من الاختصار والتحسين • وانتهى الى طريقة تهبط بصور الحروف ولواحقها للجمع المشكول شكلا كاملا الى ١٣٥ ، بعد ان كانت تتراوح بين ٣٠٠ و ٤٧٠ بحسب الجمع الآلي واليدوي •

وهذا ولا شك اختصار يوفر كثيرا من الجهد ومن المال ، وبه يصبح صندوق الطباعة العربية قريبا من صندوق الطباعة بالحروف اللاتينية التي يبلغ عددها ١١٥ وقد طبقت هذه الطريقة بالفعل ، فلم تستنكرها العين ، ولم تخل من الجمال • وأساسها خط النسخ المستعمل في الطباعة ، والمألوف لدى كل من يكتبون بالعربية •

وتيسيرا للقراءة رأى المجمع أن يلتزم الشكل في كتب مراحل التعليم العام على درجات متفاوتة وفي حدود قواعد واضحة ، وأن يوضع في مكان ثابت من الحرف تألفه العين ولا يختل به توازن السطور ، وان يوضع النقط في موضع ثابت نفيا للاشتباه •

وكم دعا المجمع الى تيسير النحو والاملاء ، ووضع في ذلك مشروعات محددة • ونادى من قديم بوضع علامات للدلالة على أصوات الحروف التي لا مقابل لها في العربية ، وحاول رسم طريقة لكتابة الاعلام الاجنبية • ودعوات كهذه ان لم تستجب اليوم ، فهي آخذة طريقها لا محالة ، ومن يدري فقد يكون في تيسير الكتابة المقترح ما يؤدي الى اختصار أعظم ، أو ما ينتهي الى كتابة الحروف منفصلة بحيث لا تأخذ الا شكلا واحدا ؟ وهناك اتجاه عام يؤثر التدرج ويأبى الطفرة ، لان من الخير أن يربط الحاضر بالماضي • وابتكار طريقة جديدة للكتابة ان فرض على شعب بوسيلة ما ، فلا سبيل لتطبيقه على شعوب أخرى لا تقره • ونحن جميعا عبيد الالف والعادة ولا نزاع في أن الجماعات والافراد تخضع لهما أكثر مما تخضع للعقل والمنطق •



# مقامر مرتش

قصة بقلم : حسيب كيالي

كان يحمل مناشف من مختلف الحجوم ، يحملها على ذراعه اليسرى ، على كتفيه ، في صندوق من المقوى بين يديه .. ويسير الهوينا ، كرشه أمامه قد انطلقت خارج السترة المقطعة الازرار ، فبدأ كأن الكرش هي التي قطعتها لتتحرر من ربقة السترة ..

وبادرته بالتحية :

ـ الله معك يا أبو سامر !

فأظل عينيه بيده اليسرى وقال :

ـ مرحبا !

ولكنه سرعان ما هتف متهللا :

ـ عبد الكريم ! ولك أهلا بك ، تعال ..

لم يكن من عادته أن يخاطبني بمثل هذه الكلفة المرفوعة .. وحدت معه عن سبيل الناس من رصيف محطة الحجاز ، ولذنا بالجدار . ووضع ما كان في يده من المناشف على صندوق المقوى الذي انزلق غطاؤه قليلا ، وركى كتفه على الجدار .

قلت :

ـ منذ متى ما رأيتك ؟

قال وهو يتفحصني بعينيه :

ـ من زمان . ست ، سبع سنين ، يمكن أكثر . ولد عمره سبع سنين يروح الى المدرسة . أنت نحفت قليلا . والشيب ؟ لا ، بضع شعرات فقط ! ألا تزال تشتغل في التجارة ؟

ـ لا ، فلست تقريبا . صفيت المحل . أنا الآن سمسار .

ـ يسترها الله .. صحتك جيدة . هذا هو الاصل . الشيخ الذي سقطت أسنانه وتدربت عليه الاوجاع والعلل ، واليوم المرارة متعطلة ، وغدا الكبد منفوخة .. ايش تسوى الدنيا في عينيه ؟ افرض أن عنده مال قارون ولا يتهنا بكاس ماء صاف ، فما قيمة ماله ؟ لا تحزن ! ألا تحصل حق الخبزات ؟ كفاية ، احمد ربك . انتم جماعة طيبون . البيت المستور حاشا الله أن يفضحه .. ولكن يجب أن يكون في يدكم لله . الصدقة تدفع البلاء ياعبد الكريم . ساعدوا عمكم خليل . لا يجوز أن تتخلوا عنه . أنا ساكن معه في هذا الفندق هنا . هل زرته فيه ؟

وكنت قد زرت عمي مرة واحدة في الشتاء المنصرم، ولم أطق تثنيتها . أي فندق ! كدت أبكي . سبعة أسرة أو ثمانية موزعة على ثلاث غرف صغيرة ، الواحدة قد حمام البيت . غرفة عمي كان فيها ثلاثة أسرة ، ويسمونها تخوتا ، فرشاتها من القش ، والوان معدنها الاصلية لم تعد تعرف لطول ما فتك الصدأ بها . وقد يلذع البرد أحد النزلاء الكرام .. ( على الباب اعلان في رأسه بشرى الى نزلائنا الكرام .. والبشرى هي تخفيض سعر التخت من ليرة ونصف الى ليرة سورية . والاجرة يتفق عليها مع الادارة ) فيمد يده المرتجفة الى سجادة الارض المتهرئة ويسحبها الى تخته وينطمر فيها .. والقذارة في كل مكان . المخدات كأنك دهنتها بالزفت مثنى وثلاث ، وأعقاب السيكارات تحت التخوت ، فوق الخزانات ، على مناضد الليل .. وكل شيء يئن ، ينشر روائح حادة مخرشة ، أو عفنة محبوسة .. في الدهليز ديوانة من أمات التاج والطرة ، قسمها الايسر مخسوف ، قشه يمس الارض ، ووجهها كالح مثل وبر هر هرم مريض .. وأما قسمها الايمن فمرتفع ..

أغلب الظن أنه سمك بقطعة خشب فوق النوابض .. صاحب الفندق ـ الادارة التي جاء ذكرها في البشرى ـ هو ذاته يهوم طول النهار وراء منضدة رثة ، أظن أنها مصنوعة من صناديق البضاعة ، لاني لمحت على القسم الذي يواجه الداخل الى الدهليز ، حيث تقوم الادارة ، كلمة « وارد بيروت » بالفرنسية ، وبخط يشبه ما نقرؤه على الصناديق التي تعلب بها البضائع المنقولة بحرا .. أجل ، صاحب الفندق لا يكاد يختلف طرازه عن كلية الاثاث والنزلاء .. وهو يهوم تهويما ثقيلا . لا بد أن جسمه قد تسمم من الروائح والهواء المحبوس ، فأصابه ما يشبه الخدر ، البحران المرضي . هذا انسان مدمن مخدرات ولا مخدرات .. واذا وجهت اليه الخطاب ندعنه صوت ميت كأنه من غير هذه الدنيا ، كأن كل الامراس التي تشده اليها قد تقطعت ..

واستطرد أبو سامر يقول :

ـ قد تكون زرته مرة واحدة ولم تكررها ! هذا لا يجوز .. عمك رجل مسكين . مقامر ؟ كان . وأما اليوم فهو طالب رغيف ، لا أكثر . لما وجد في العام الماضي تلك الوظيفة في معمل الكونسروا جن من الفرح .. وأنت تعرف الراتب : تسعين ورقة . وأجرة الفندق في اليوم ثلاثة أرباع الليرة مع المراعاة .. ومع ذلك باس يده وجها وقفا وحطها على رأسه . وحمد الله تعالى . أنت لا تفهم معنى أن يكون الرجل بطالا . الموت أهون علي ديني حرام .. البطال تخطر له خواطر مثل المجانين . يعن على باله أن ينقل كومة حجارة من مطرح الى مطرح ، أن يخطف من عامل مجرفته ويحفر الارض هكذا مجاناً ، لوجه الله .. ماذا كنت أقول ؟ بعد أن يسر الله لعمك ذلك العمل صار كأنه خلق من جديد . صار غير عمك خليل الذي تعرفه . كان يشتغل قبل الظهر وبعد الظهر حتى المغرب . وظيفته مقتصرة على تسجيل بطاقات العمال ، ولكنه كان يقف على القبان ، يكنس الغرفة ، يملي المكاتيب على الناسخ .. ولكن الله لم يشأ ابقاء تلك النعمة عليه . سكر المصنع وسرحوه . أعطوه ثلاثين ليرة تعويض تسريح .. ايش يعني ثلاثين ليرة ؟ أكلها بشهر وهو يفتح فمه للهواء .. حرام ! لا يجوز أن تتخلوا عنه . هذا عمكم ، من دمكم ولحمكم . ربما تقول لي انه جلب العار للاسرة .. باع حصته من الضيعة وصرفها على طاولة القمار .. حب ، عشق ، عمل كل شيء ما أراده الله .. ولكن فكر أن كل هذا شغل الله . الله هو الذي أشقاه .. والرجل عمكم أمام الله وأمام الخلق . الدم ما هو ماء . الدم دائما دم . ايش يعني جلب العار على الاسرة ؟ أن يحكي الناس في حقكم؟ الناس يحكون في حقك ولو كنت مقطع حصر الجامع ، وفي جبينك زبيبة صلاة قد الخوخة المجففة .. خذني أنا ! أنت تعرف أني كنت تاجر مالفاتورة ، ألعب بالليرات مثلما تلعب أنت زهر الطاولة . ولكني تدربت على القمار! بدأت الحكاية تسلية : جرب حالك بخمسين ليرة .. وكانت خمسين من المربح ، واذا أنا ألعب بمئات الليرات من رأس المال ! صرنا نبيع البيعة من هنا ويا الله الى القهوة ، المقمرة .. الخلاصة بعنا ما فوقنا وما تحتنا وبعزقناه على القمار .. عاشرنا العتال والحرامي والسكير والقواد وجابي المالية المختلس .. لعبنا في ناد ، النسوان فيه مثل العرائس ليلة الدخلة .. ولعبنا في زريبة بقر حيطانها ، الله وكيلك ، مسبغة بالجلة ورائحة الصنان تخنق الخنزير .. وأغمضنا عينا وفتحنا عينا واذا نحن لا مال ولا رزق ، لا دكان ولا بضاعة .. لو أن في يدنا صنعة لكانت المسألة هينة . ولكن أهلنا ، الله يسامحهم ، ما علمونا الا زر السترة والتسكع في الطرقات .. أكابر بلا قافية ، بيت المواقدي ، أضرب واطرح ! اي؟ ايش تشتغل ؟ رحنا بسنا ألف يد حتى تعينا جابي بلدية ، براتب مئة وعشرين ليرة سورية ، لا أكثر ولا أقل .. كفاية ! لو كنت بني آدم لحمدت الله وشكرته وضبيت امرأتي وأولادي وشكرت ستور الحال أمد لحافي على قد رجلي ، على قد هذه المئة والعشرين التي قسمها الله لي .. ولكن سوس القمار كان قد باض وفرخ في عظامي .. أول راتب والثاني لقطنا سر الصنعة : صرنا نمد يدنا الى مال الحكومة يقولون لك : « أغرانا الشيطان » .. كذب ! لا تصدق . الشيطان لا يغري

أحدا . الشيطان هنا ، فينا . أقول : مددت يدي الى مال البلدية . كنت أسرق وأقتسم الغنائم مع علي برهان الدين ، كاتب التحقق . ألا تعرفه ؟ هذا لم يكن مبتلى بالقمار مثلي . هذا كانت علته أرذل . كان يحب الشكل عشق حاكم الصلح ، وهو شاب على وجهه نقطة حسن ، ولكنه حاكم ! ومع ذلك عشقه . صرف عليه جب مال .. تصور كاتب تحقق في البلدية يصطحب حاكم الصلح .. ماذا يجب عليه أن يلبس ؟ عقادة من أمات الورقة ؟ بدلة من البالات ؟ أعوذ بالله ! كان برهان الدين لا يفصل بدلاته الا عند حبشيان في حلب .. والعقادات شغل ايطاليا . علي الطلاق .. ولما حجزوا عليه وجدوا عنده استغفر الله العظيم ثلاثمئة عقادة ، وخمسين بدلة ، على قولهم .. الله ما بيننا وبينه .. الآن هو في حلب . في فندق شروى فندقنا هذا .. يلحق ابن البلد سفر عشر كيلو مترات حتى يعطيه معاملة يقضيها له في السرايا .. وأما حاكم الصلح ، وصاحبه الحميم .. فقد تزوج ، فرش بيته من محلات كردوس مالك علي يمين .. ديني علي حرام ثلاثة أرباع المهر وفرش البيت أنا سرقته لعلي برهان الدين ، وانتهى الى حبيب الحاكم .. ولما بدأت الدعاوي من الدائنين على برهان الدين المسكين ، واشتغل الحجز وراى الحاكم « صديقه الاوحد » مفلسا ، ملاحقا في المحاكم ، متشردا في الازقة .. فعل ما لا يفعله الغريب .. يومها ذهب علي برهان الدين يطلب منه مئة ليرة سورية يعيش بها بضعة أيام.. أتدري ماذا فعل الحاكم الحبيب ؟ الله الوكيل رن الجرس وصاح بالآذن : « أخرج لي هذا القذر من هنا » .. اتعذر يا ابن الاصل ؟! الخلاصة ! أنا أيضا خرطوا القيد في يدي وساقوني الى المحاكمة .. أخوك سعد توكل لي ، الله يكثر من أمثاله . الله يحيي البطن والظهر . انسان أكابر صحيح . نزل الى حلب عدة مرات ، ودافع وكتب .. وما قبض غير رحمة الله ورضى الوالدين ! الشاهد ! أخذ وعطا ، وهاتوه وخذوه ، وأخيرا سمعت الحاكم يلفظ الحكم .. احزر كم حكموني ؟ سنة وسبع وعشرين ليرة غرامة ! العمي .. صرت أضحك في قلبي على الحاكم ، وأقول لنفسي : « هذا ، علي الطلاق ، مجنون ! » صحيح أن سعد ، الله يوجه له كل خير ، بح صوته وانتفخت عروق رقبته ، ولم يترك يا حضرات السادة هذه ليست جريمة موكلي « الا نبشها وسلخها في وجه المحكمة .. ولكن ما لا ريب فيه أني حرامي ، مقامر ، نهبت الدولة ، قلفطت مال العالم .. مالك علي يمين لا أعرف كم سرقت ! خمسة آلاف ، عشرة ! يمكن أكثر .. وسنة حبس فقط لا غير ، وسبع وعشرون ليرة غرامة ! كيف صح حساب هذه ؟ الله أعلم ! أتعلم أني كنت أقدر لنفسي حركة عشر سنين يابسات على الاقل ؟ الخلاصة ! انحبسنا . وقبل نهاية المدة بأسبوع ، اسبوعين ، جاءت الحرمة ، أم سامر ، تزورني في الحبس . قلت لها ان عليها أن تتدبر السبع والعشرين ليرة غرامة ، والا انحبست بها حوالي شهر ، شهر ونصف زيادة .. راحت المرأة تطرق أبواب الاسرة ، آل المواقدي الاكارم .. لم يرد عليها أحد ، كأنها تدق أبواب القبور .. ومن يرد على امرأة مرتكب مرتشي ، حرامي ؟ نحن بلا قافية أشراف ، أغنياء ، نصف البلد . والاشراف لا يوسخون أيديهم ، لا يمدونها الى شقي ، خنزير . أم سامر لا تعرف تقول لهم : « من أين جمعتم أموالكم ؟ » امرأة درويشة ، واقعة في ضيق ، الطفل عنده حيلة أكثر منها .. ولكن اسألني أنا ! أبو رياض ، عمي ، من أين جمع ماله ؟ لا تغرك العمامة اللام ألف والمسبحة طول يومين بلا خبز ! علي الطلاق ثلاثة أرباع ثروته من الربا ، والباقي من أكل حقوق العالم .. الحاصل ! ما لنا وما للناس ! أنا لا أحب الحكي في حق أحد . الحقيقة أنهم لا يريدون أن يدفعوا . هذه زبدة الكلام ، كلمة ورد غطاها ! قل راحت الحرمة تطرق باب عبد الرحمن الصباغ . هذا رجل لا هو قريبنا ولا هو نسيبنا .. وليس من الاشراف بعيد عنك ! هذا انسان بدأ حياته في محلجة القطن ، أجير بكعكة . ظل يحمل الاكياس حتى تورم ظهره .. وفي الكلب نهرة وفيه ألف .. ولكن الله نظر اليه بعين الرضا . صار اذا أمسك التراب ينقلب الى ذهب بين

يديه . أنت ربما تعرفه أيام كان في دكانه الصغيرة بسوق الخضرة . متى تركت البلد ؟ من عشر سنوات ؟ أي نعم .. يومها كان تاجرا صغيرا في آخر سوق الخضرة ، قرب الجامع العمري .. أي سيدي رح شفه الآن . صار غير عبد الرحمن الذي كنت تعرفه : تاجر في كل الدنيا ، لا يحكي الا بالملايين .. وآلو ، يا آنسة ، أعطيني الهند ، اليابان ، أمريكا . وبنايات في حلب وأراضي ، وخدم وحشم وأكثر من مئة عيلة محتاجة يطوف عليها في الليل : لهذه شنبل حنطة ، ولتلك مئة ليرة .. ويظهر أن الله تعالى حكيم ، يعرف من يستحق الثروة ومن لا يستحقها .. يعرف مثلاأنيعكروت ، خاسر ، لا أسوى أن يكون في جيبي أكثر من حق الخبزات .. وعمك خليل أيضا لم يكن يستحق أن تكون له حصته في ضيعة .. الخلاصة ! دخلت الحرمة على عبد الرحمن الصباغ . قالت له : « أبو سامر سيخرج من الحبس بعد بضعة أيام ، فاذا كنت تستطيع أن تؤمن له عملا بعد خروجه فأعطني سبعا وعشرين ليرة من راتب الشهر الاول حتى نستطيع دفع الغرامة عنه . » أنا ما علمتها أن تقول له كل هذا الكلام والله . ولكن الله أنطقها . واحزر ما قال لها ؟! قال لها يكرم أصلك يا أم سامر . ومد يده الى الصندوق وأعطاها السبع والعشرين ليرة ، وفوقها خمسين ليرة . قال لها : دبري بها أمورك من الآن حتى يخرج أبو سامر من الحبس .. وطلعنا من الحبس واذا العمل في الانتظار : عينني عبد الرحمن حارسا في محلحلجتهم . وأي محلحلجة ! مصنع طويل عريض .. ماكنات آخر طراز .. والداعي بسلامتك قاعد طول النهار ، مثل ذكر النحل ، في الشمس ، لا شغلة ولا عملة ومئة ليرة سورية لخدمتي .. وحتى بعد أن تركت البلد وجئت الى هنا ، بل حتى الآن لم تنقطع المئة ليرة لأم سامر .

قلت :

ـ ولماذا تركت العمل عنده ؟

ـ ما بقي لي عيش في البلد : الدائنون ، والاسرة ، ونظرات الناس . أصبحت يضرب في المثل ينصح الاب ابنه قائلا : « اعتبر بابن المواقدي ! » .. ثم اني لم أكن أقدم عملا مفيدا . وهذا محرج .. المئة ليرة التي كنت أقبضها أشعر أنها نوع من الصدقة ، والشفقة ..

ـ ولكنك قلت انها لا تزال جارية !

ـ اي نعم ، لا تزال .. ولكني غائب عن البلد هذا أهون . ابني سامر يقوم بالحراسة أحيانا . أنا هنا لا عين تشوف ولا قلب يحزن . الفرق كبير بين أن يكون رب البيت في البيت ويتقبل الصدقة وألا يكون .. الشاهد ! نعود الى سيرة عبد الرحمن . ألا ترى معي أن الاولياء الصالحين الذين يبني الناس لهم المزارات ويتمسحون بتراب قبورهم ليسوا أحسن من هذا الانسان ؟ الشيخ رجب له مزار غرب البلدة ، يحجون اليه من أربعة أطراف المنطقة . ماذا فعل الشيخ رجب هذا حتى يتبارك من الخلق وينذروا له النذور ؟ أنا أعرفه شخصيا : كان شاطرا في دق المزهر وضرب الشيش .. وفي كل سنة يقوم مرة واحدة بدوسة .. أنت كنت صغيرا ولم تر الدوسة : ينبطح الوف الناس على بطونهم ومرافقهم مشدودة الى خواصرهم ، ويأتي الشيخ رجب على مهر ضعيف فيمر من فوقهم .. تدجيل .. الشيخ رجب بخفة الريشة والمهر ليس له نضوة حديدية ، والناس مشدودة عضلات الظهر .. ومع ذلك ، مرة من المرات ، دعس المهر دعسة جسدية فكسر ضلع واحد من المهابيل المنبطحين لتلقي بركة الشيخ ! أتعلم كيف علل مريدو الشيخ الحادث يومها ؟ قالوا ان الرجل المصاب كان على جنابة ! كذب .. الخلاصة ! هذا مثل لولي من أولياء الله .. ولا تنس أنه كان يعيش على الاجاويد . يعني ؟ شحاذ ، طفيلي ، شيخ سلتة .. وأما عبد الرحمن فتستطيع البلدة ، تستطيع سورية نفسها أن ترفع رأسها به .. يقولون لك عمر بن الخطاب كان في يده لله .. أي قل لي أبوس يديك ، ماذا فعل حتى تمتليء الكتب والسير بأخباره ؟ أنت لا تفتح كتابا الا وتقرأ عن عدله ، من خيره ، عن

قلبه الطيب •• أريد أن أفهم هل مد يده مرة الى صندوقه الحديدي وأعطى امرأة زوجها محبوس عشرين ، ثلاثين ليرة حتى تفك زوجها ؟ هل عين أحدا في حراسة ؟ هل دعا انسانا الى غداء ، الى عشاء ؟ قالوا مر بأم فقيرة كانت تغلي الحصى في الطنجرة وتكذب على أولادها •• فحمل لها كيس طحين ! تعال أقدر على التخلص من حكاية كيس الطحين هذه •• كتب أولاد المدرسة تحكي عنها ، التواريخ تطنب فيها ، المجلات ، الجرائد ! قالوا أيضا حاتم الطائي ذبح جمله •• اي علي الطلاق عبد الرحمن أحسن من حاتم ، وأخوك سعد أحسن منه • لو كان في الدنيا عدل لكان اسمهما نزل في التاريخ • أمثال هذين يجب أن تكتب عنهما التواريخ • قال كيس طحين ، قال جمل ! شي لله ياكيس طحين •• التاريخ ايش يعني ؟ التاريخ عبارة عن رواية عجائب المخلوقات •• امرأة وضعت برأسين ، صياد رأى جنية نصفها امرأة ونصفها سمكة •• اي سيدي حكاية عبد الرحمن أعجب •• ومع ذلك أنا ما قرأت اسمه في أي كتاب تاريخ والله العظيم • هذا ظلم !

والآن يا أخي لا تنسوا عمك خليل • حالته تبكي قلب الكافر يتألم عليه • والدم يا عبد الكريم دم • الدم ما هو ماء • الله سبحانه وتعالى كتب عليه القمار ثم تاب • القمار علة ، داء مثل السرطان ، اذا انصاب أحد محبيك بالسرطان ، بعيد الشر ، لا سمح الله •• فهل تأنف منه ؟ القمار كذلك •• أنا أتذكر أول ما تعلمت القمار • في يوم من الايام كانت نفسي سوداء ، كأنك دهنتها بالقطران • قلت لنفسي : « رح يا ولد الى القهوة ، تسل لك شوية » رحنا • كان فيها بعض الاصحاب يلعبون البوكر • هل تعرف هذه اللعبة ؟ كلها مفاجآت ربما تكون المفاجآت الوحيدة في بلدنا الميت •• ومن يومها علقنا ، علقة بدوي في صلاة التراويح ! الانسان يا عبد الكريم ضعيف • يجب أن نشفق عليه • أحيانا أمر بولد قدامه صندوق بوية • وتكون عيناه الى حذائي ، ولا يكون قد نظر الى هندامي بعد ، فيخطيء ويقول لي بصوت خافت يائس : « مسحة ظريفة ! » فأحس أن قلبي قد انجرح • لماذا لا يكون الناس كلهم أكارم ، حالهم طيب ، خبزهم مؤمن ، والضحكة لا تفارق شفاههم! العمل ليس فيه عيب ، ولكن الصوت الخافت المكسور هو الذي يجرح القلب ، يشطره الى شطرين •• اي نعم يا عين أخيك ، يجب أن نعطف على الناس • أكبر رجل في الدنيا يحتاج الى عطفنا مثلما يحتاج الطفل الى ثدي أمه • الدنيا آخرتها حفرة مالها قرار ، حفرة سوداء مثل قلب المرابي •• ولا يبغي في هذه الدنيا شيء •• وما دام عزرائيل بالمرصاد لملكنا وزيالنا ، لغنينا وفقيرنا •• فما معنى الشح والكلبنة والنفخة الكذابة ! حب الناس يا أخي • أنا مقامر ، لا أسوى فلسا ، ولكن الناس تفضلوا علي •• غمروني بأفضالهم • أنا الآن لا أسحب في اليوم أكثر من ورقتين ، ولكني أقول لنفسي : « كفاية كثير عليك يا أبو سامر • ايش قدمت للناس حتى تطلب أكثر من ورقتين في النهار ؟ » كفاية حق الخبزات •• وهذه الحياة تناسبني تماما • أحيانا لا أجد ما أدفع به أجرة الفندق ، فأحمل عفشي ( وأي عفش ! صرة أواعي ما لها لون •• ) وأروح أيام الصيف أنام في الجامع •• ومبسوط • فوق الرضا رضا •• هل تلزمك منشفة ؟

ـ قديش الواحدة ؟

ـ ليرة •

لم يكن معي الا عشر ليرات قطعة واحدة فأعطيته اياها وأنا أنظر اليه متمعنا • قال :

ـ عشر ليرات ؟ ما معي كفاية • رح ، تعطيني فيما بعد •

ـ لا ، أعط الباقي لعمي •

ـ ظريف • الله يعوض عليك • ولكن العملة لا تكفي • لا تقطعه • الكلمة الطيبة قد تكون أحلى على قلبه من العملة • ولا أحد يموت من الجوع • تعال زره فهو انسان وحيد ، وحيد !

حسيب الكيالي

# ابـدا دمشق

شعر : شوقي بغدادي

دمشـق
يا مدينتي الخضراء
يا دمشـق
دمشق يا نافذة
موصدة في الشرق
بضحكة العذراء أم
بضحكة البغي
بقلب شيخ فاتر
أم بهوى صبي
بالاعين العميقة الاغوار
تضحك في استهتار
أو هي تبكي
وترش النار
بكل ما فيها من الاسرار
بصيحة الاذان عند الفجر
من كل مسجد
وكل صدر
بموعـد أضـاء قلب النهـر
بكل مـا في الشط مـن أخبار
وكـل مـا في الماء من أقـذار
بموجـة الضبـاب في سـكون
تهبط فـوق سـفح قاسـيون
بالشمس فـوق الموجـة السـوداء
بيضـاء لا تخيب الرجـاء
بالجـدل العقيـم في مقهـى
والنخب المهـدور في ملهـى
بغفلـة الشـباب
يغلق كـل بـاب
بأعين الطلاب
صيحة الاضراب
بكل قبـح فيـك أو جمـال
فأنت أنت معقـد الآمـال
وفيـك سـوف ينهض الرجـال
ويحملون عـدة القتـال
وكـل درب عنـدنا يشـق
متجـه نحـوك يـا دمشـق
وكـل حب عـاصف وشـوق
وكـل نبض في الحشـا وخفـق
وكـل رعـد غاضب ، وبـرق
وكـل رايـة ترف فـوق
أو جـرس مجلجل يـدق
جميعها تصرخ ..
يا دمشق .. يا دمشق .. يا دمشق ..

# دراسات في دوستويفسكي - ٢

# التمزق الفاجع

بقلم : الدكتور فؤاد أيوب

يعبر دوستويفسكي في مؤلفاته المختلفة ، بكل قوة فنه النادر ، عما تقاسيه الانسانية « المذلة والمهانة » من عذاب غير محدود ، وعما يقاسيه هو نفسه ، في أعماق قلبه الحساس ونفسه الكبيرة ، من ألم غير محدود أيضا حيال ذلك العذاب . ولقد كان يضاعف من حدة هذا الالم في قلبه انه لم يكن يعرف سبيلا لانقاذ الانسانية من تلك الهاوية المتردية فيها ، فيثور ويحاول في الوقت نفسه كبح جماح ثورته التي يعتقد أنها عديمة الجدوى .

ولقد لقي هو نفسه من ضروب الذل والهوان ما جعل من طريقه عبر الحياة والادب صورة كالحة عن مأساة تشويه النفس البشرية وخنقها بقوى خارجية معادية للعبقرية ، لانها على العموم معادية للحرية التي لا يمكن بدونها أن يكون خلق جمالي أو فني . ان سائر مؤلفاته، وهي تكاد تكون دائما مجرد اعترافات شخصية ، تقدم لنا صورة حية عن روح كبيرة ، لكنها مريضة ، قد أمعنها التوقع الكئيب للشر ، والذعر المتصل حيال فوضى الحياة وظلامها ، والالم الساحق أمام ما يقاسيه المعذبون في الارض . ولقد انحدرت هذه الروح الكبيرة ، في تخبطها ، الى حضيض اليأس ، وفي الهاوية فقدت كل مطامحها وأحلامها وآمالها ، حتى انتهى الامر بها الى حب الهاوية ، الى حب العذاب الذي أصبح الغذاء الوحيد الذي تقتات به .

وذلك هو التمزق الباطني الذي كان يعذب دوستويفسكي وأبطاله جميعا ، والذي كان في الوقت نفسه ، ويا للعجب ! - مصدر فرح مخصوص له ولهم ، فرح فيه سعادة الثأر ، لان فيه الاعتراف بعدم جدوى العذاب البشري وما يؤدي اليه من تشوه للنفس الانسانية .

« العبودية أو السيادة » ، هذه الكلمات القليلة الحبلى بمعنى كبير نجدها في الملاحظات التي كتبها دوستويفسكي تمهيدا لرواية طويلة بعنوان « حياة خاطىء كبير » كان يريدها أن تكون استمرارا وتكملة « للاخوة كارامازوف » ، وبالاخص لحياة اليوشا من بين الاخوة الثلاثة ، كما كان يريد أن يجعل منها وصيته الاخيرة للاجيال اللاحقة لو أمهلته الايام ليصوغها . والحقيقة اننا نستطيع أن نجعل من تلك الكلمات عنوانا لكل ما كتبه دوستويفسكي على الاطلاق ، فهي تصور على أفضل وجه نفسية أبطاله جميعا ، هؤلاء الذين عاشوا عصر أزمة وانتقال ، عصر انهيار العلاقات الاجتماعية الاقطاعية العنيفة في روسيا ونشوء علاقات جديدة مكانها ، رأسمالية في جوهرها . ان الاسس الازلية التي قامت عليها روسيا الام تتزعزع وتنهار بصورة لم تكن في الحسبان ، وعلى انقاضها يبرز نظام اقتصادي واجتماعي جديد ، غير مألوف ، تسوده شريعة الغاب ، حيث يسعى كل انسان الى الاثراء السريع بأية طريقة كانت ، ومهما تكن التكاليف . «كل شيء مقابل لا شيء ، وبأسرع ما يمكن، ودونما عناء » ، هذا هو شعار النظام الجديد ، وبالتالي شعار العصر كله . وان ابطال دوستويفسكي يقفون عند مفترق الطرق ، قد نسفت الجسور من خلفهم فلا سبيل الى النكوص ، وضاعت السبل من أمامهم في ضباب كثيف فهم لا يعرفون كيف يسلكون ، ان المستقبل يبعث الهلع في قلوبهم ، يهددهم من جهة بالفقر المدقع ، بالبؤس ، هذا « الشر الفظيع الذي يقضي على كرامة الانسان » ، ويلوح لهم من جهة أخرى بالامل الخلاب ، الامل في الثروة والارتفاع فوق الآخرين . وان هذه الدنيا الجديدة

التي يخوضون غمارها لتفعل بهم ما فعلته بدوستويفسكي خالقهم ، تنخس آمالهم ، وتكيل لهم الوعود ، كي تعود في معظم الاحيان ، فتحطمهم في اللحظة الاخيرة دونما رحمة • أجل ، « العبودية أو السيادة » ، فأنت اما أن تكون سيدا واما أن تكون عبدا ، اما أن تضطهد الآخرين واما أن يضطهدوك ، اما أن تذلهم واما أن يذلوك ، وليس ثمة سبيل آخر • ولقد كان أبطال دوستويفسكي، أبطاله الحقيقيون ، الابطال الذين يحبهم ، يفضلون دائما الحل الاخير ، أي أن يكونوا الضحايا بالاحرى من أن يكونوا الجلادين •

أما طريق النضال الثوري في سبيل الخلاص من هذا الوضع المخزي ـ ولقد كان على العموم طريق الانتليجنتزيا الروسية كلها ـ فان دوستويفسكي يرفضه بعزم • ذلك أنه قد جربه مرة ، ولم ينس ما حل به من عذاب وهوان بنتيجة ذلك •

فقد بدأ حياته الادبية تلميذا لغوغول ، صاحب « النفوس الميتة » و « المفتش العام » ، وحليفا لبيلنسكي ، الناقد المرير الذي وضع الاسس لكل الادب الروسي اللاحق ، أي أنه بدأ حياته الادبية نصيرا لكل ما هو تقدمي في الفن والنضال الاجتماعي على السواء • ان الاستثمار العديم الرحمة للفلاحين من قبل الملاكين الكبار ، ونمو الحركة الفلاحية من أجل الارض ، وامتداد التناقضات الطبقية وارتفاعها الى مستوى صراع طبقي حقيقي ، والحاجة المتعاظمة الى الغاء نظام الرق ، وتطور الوعي الاجتماعي والفكر الثوري عند الطبقات المستثمرة على السواء ، هذه الامور جميعا قد مارست تأثيرا عظيما على دوستويفسكي الفتى الذي أدرك حسه الغني بعمق عظيم الوضع العام ، فعبر عنه بقوة لا نظير لها في مؤلفاته الاولى • وان هذا الادراك بالضبط هو الذي قاده الى النزول الى معترك الحياة السياسية ، بحيث انتسب الى حلقة بتراشيفسكي الثورية ، المتأثرة بنظريات الاشتراكيين الفرنسيين ، وخاصة فوريه ، والباحثة عن حل للتناقضات الجديدة التي تلتهم المجتمع الروسي ، وفي برنامجها العمل الثوري على أسلوب الديسمبريين • ولعله كان يواصل الطريق نفسها لولا الصدمة العنيفة التي تعرض لها ، والهوان الساحق الذي وقع فريسة لها حين اعتقل ، وقبر طوال ستة أشهر في زنزانة ضيقة مظلمة ، وأصدر عليه حكم الاعدام في محاكمة صورية مزورة الوثائق ، وسيق الى ساحة سيميونيفسكي لتمثل عليه وعلى رفاقه مناورة مدبرة الغرض منها اثبات قوة القيصرية ـ ومن خلفها كل النظام العتيق البالي ـ وقدرتها على البطش بهؤلاء الثوريين العاصين ، وهم على أية حال حفنة صغيرة من الشبان لا حول لها ولا قوة • ومن بعد كانت الاشغال الشاقة والنفي في سيبريا ، أي الطرد طوال عشرة أعوام خارج المجتمع ، بين كتلة من أسوأ القتلة والمجرمين والجهلاء القساة القلوب •

ولقد نجحت المناورة معه ، هو الذي لم يكن يملك على أية حال ذلك الاسلوب الديموقراطي الثوري في التفكير الذي لا بد أن يتوفر في كل ثوري حقيقي ، بل كانت كل روحه الثورية من ذلك النوع العاطفي الحالم ، مثلها في ذلك مثل اشتراكيته الوهمية المتوزعة بين الحادية بيلنسكي من جهة وأحلامه عن « الاشتراكية المسيحية » المنبثقة من تعاليم يسوع من جهة أخرى • وكما تأثر من قبل بالجو الذي عاش فيه ، وقع الآن فريسة بيئته الجديدة ، بيئة السجن والمنفى • كانت الصدمة أقوى من أن تتحملها أعصابه ، فلم يتمالك بعدها نفسه أبدا ، بحيث أنكر منذ ذلك الحين كل ما كان يؤمن به من قبل، ليقتنع بقوة الاوتوقراطية وأبديتها •

وكان أشد ما آلمه في سنوات أشغاله الشاقة ذلك الشعور بالوحدة ، شعوره بالانعزال مع حفنة المفكرين الذين معه عن جماهير السجناء الذين لا يضمرون لاولئك المفكرين مجرد العداء فحسب ، بله الحقد الشديد أيضا • وحين خلط ذهنه المشوش بين هؤلاء السجناء المجرمين وبين جماهير الشعب الروسي الذين ليسوا هم في واقع الامر سوى السقط منها ، فقد راح يؤمن بوجود هوة سحيقة تفصل بين جماهير الشعب

وجماعة المثقفين الذين يحملون راية الحرية • واما تردى في هذه الهوة التي خلقها وهمه وحده ، اقتنع بعدم جدوى النضال من أجل الحرية ، مستبدلا اياه بنضال آخر من أجل حرية من نوع آخر رغم انها حرية الانسان الداخلية • أجل ، ففي السجن ، وقيوده متصلة بقيود نفاية الشعب الروسي من لصوص ومجرمين وقتلة ، نما في وجدانه ورسخ الايمان بأن الشعب يعارض بكل قواه حركة المثقفين الثورية وطراز تفكيرهم الغريب عنه ، ويعارض بالخاصة انكارهم الريني ، وبالتالي فان كل محاولة للاقتراب من الشعب تتطلب النزول اليه في مستوى جهالته الاجتماعية والدينية ، وليس الارتفاع به الى مستوى تفكير الانتيلجنتزيا التي استقت من الغرب الشيء الكثير من آرائها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعقائدية •

وانا لنفهم اذن أنه كي يستطيع الحياة بعدئذ ، بعد كل ما قاسى من اذلال خلال سنواته الاربع من الاشغال الشاقة والسنوات الست الاخرى في الخدمة العسكرية بأدنى الرتب في سيبريا ، فانه لم يكن له بد من الاختيار بين أمرين : فاما الاخلاص لمثله القديمة التي فقد الايمان بها ـ وهذا هو المهم ـ وبالتالي الاستمرار في تحمل العذاب والهوان من أجلها كمعظم رفاقه في حلقة بتراشيفسكي ، واما الاستسلام للنير الذي كان قد رفضه وحاول انقاذ الشعب منه ، باحثا في الوقت نفسه عن سبيل لتبرير هذا الاستسلام في نظره الخاص ، وذلك كي يتمكن من الاحتفاظ بشعور الكرامة والاحترام للذات • ولقد اختار الحل الثاني ، ووجد تبريره في اعتبار الآلام التي قاساها بركة منحته اياها السماء : « فلأتعذب اذن ، اذا كانت مواهبي تزداد ثراء وفعلي في البشر يصبح أقوى ! لعل الله قد أرسلني الى السجن كي أتعلم فيه الاشياء الاساسية التي تصبح الحياة بدونها مستحيلة ، والتي كانت الكائنات لولاها تلتهم بعضها بعضا ، وكي أحمل هذه الاشياء الاساسية الى الآخرين كيما يزيدوا من كمالهم ، مهما تكن هذه الزيادة في الكمال قليلة ، ومهما يكن عدد اولئك الذين يزيد كمالهم ضئيلا • هذا وحده يكفي كي أفهم لماذا ذهبت الى السجن » •

ولم تستطع الايام أن تمحوا انطباع تلك السنوات العشر القاسية • ان عذاباته الجسدية والنفسية معا لم تقتل فيه كثيرا من مطامحه القديمة وتبعث في قلبه مطامح جديدة فحسب ، بل لقد زادت من حدة آفته ، الصرع ، وجعلت منه في واقع الامر انسانا جديدا مختلفا كل الاختلاف عما كان عليه قبل السجن • وحين عاد أخيرا الى بطرسبورغ العاصمة ، لم يكن قد فقد الايمان في امكانية تبديل الاوضاع القائمة فحسب ، بل كذلك في الطبيعة الانسانية نفسها ، في قدرة الانسان على اعادة بناء الحياة بجهوده الخاصة ، بواسطة عقله وارادته الواعيين • وبالمقابل ، فقد أصبح يؤمن بكل ما كان من قبل موضع أفكاره ، وما ذهب الى السجن والمنفى من أجله ، أعني أزلية الاوضاع القائمة بنتيجة أزلية القيصرية نفسها ، بل لقد تجاوز ذلك وأصبح يؤمن بضرورة بقائها أيضا ، لانها الضمانة لبقاء « الارثوذكسية » التي لن يكون للعالم خلاص بدونها • ويروح يمتدح القيصر ، والامبراطورة وأعضاء آخرين أيضا من العائلة المالكة ، مدبجا في ذلك الرسائل أو ناظما القصائد ، ناسيا ، بل متناسيا ، أن هؤلاء بالضبط هم الذين دبروا بحقه ، وبحق رفاقه ، أي بحق خيرة الشعب الروسي في تلك الآونة ، مناورة الاعدام السافلة ، وهم الذين رموا به دون رحمة أو شفقة في غياهب زنزانة قلعة بطرس وبولس ، وضمن أسلاك معسكر الاشغال الشاقة في سيبريا التي لا تزال يداه وقدماه تحمل آثار حديدها وشقائها • وانه ليريد ، في ظل هذه الاوتوقراطية نفسها ، أن يكون نافعا ، وأن يكفر عن « ذنوبه » ! « اني أريد أن أكون نافعا • ولم أتألم اليوم من أجل أشياء لم تعد في الوجود ؟ ولم عذاب العطالة ؟ ان همي الوحيد هو مغادرة الجيش واتخاذ عمل مدني في روسيا ، أو حتى هنا • وأريد أن يكون لي حق النشر ، لاني أعتقد جازما بأني

لا أستطيع أن أؤدي خدمة الا عن هذه الطريق ..»

واما عاد الى بطرسبورغ ، فقد صدمه تيار الحياة في مدينة كبرى تسير بخطا واسعة نحو الرأسمالية ، بكل ما في هذا المسير العجلان من تناقضات ، وبكل ما فيه من قروح ومغريات . وحين يبدع في وصف هذه المدينة لنا، وعلى الاخص أحياءها القذرة ومبانيها الضخمة ، البشعة ، المتراكبة فوق بعضها بعضا ، المحشوة بسكان غرباء ، يعيشون بأعداد كبيرة في غرف ضيقة ، دافئة خانقة الجو، بعيدة عن النور وعن الهواء الطلق ، ومقاهيها الوسخة ، العاجة بالسكارى ، حيث يتفسخ عدد كبير من الشباب الروسي ، حين يبدع على العموم في وصف مباذل هذه المدينة الكبرى التي لا هي روسية ولا هي أوروبية ، لا هي شرقية ولا هي غربية ، فانه انما يريد أن يصف لنا البيئة الجديدة التي يعيش فيها الانسان الروسي ، بل انسان القرن التاسع عشر بصورة عامة ، بعدما استدار عن الطبيعة الام حيث تغرق جذوره ، مقتلعا هذه الجذور بصورة مقنفة شوهاء ، ليرتمي في تلك المغاور القبيحة متدهورا الى الدرك الاسفل . أين سبيل الخلاص من هذا الحضيض الاخلاقي والنفسي الذي تردى الانسان فيه ؟ ان دوستويفسكي لا يجد سوى العذاب سبيلا أمام الانسان ليطهر نفسه من هذا الدنس ، من هذا الجوع الشيطاني الى القوة ، والسلطان ، والثراء .

ويلتفت ، هو الذي اقتنع بعجز الانسان عن اعادة بناء الحياة بقواه العقلية الخاصة ، الى الملجأ الوحيد الذي يتوجه اليه عادة كل اليائسين ، الى الدين ، حمام الامان الاخير لذلك الغليان الباطني عنده . بيد أن الدين يجد في هذه النفس المكبوتة الثورة مستقرا مضطربا ، ولن يستطيع أن يحمل اليها السلام السماوي المنشود .
« انني حتى الآن ابن العصر ، ابن الكفر والشك ، وأعرف أني سأظل هكذا حتى اللحد . أي عذاب مخيف يكلفنيه هذا الظمأ الى الايمان ، هذا الظمأ الذي يقوى في نفسي بقدر تزايد الحجج التي تدعم نقيضه » .

وهكذا فانه بقدر ما كانت شكوكه تتعاظم ، فقد كانت تتعاظم أيضا جهوده لاقناع نفسه بأنه يؤمن بما يرتاب فيه في قرارة نفسه ، يؤمن بحقيقة مغلوطة بكل ما يجره مثل هذا الايمان من عواقب غير عقلانية ، ان محاولاته للدفاع عن نفسه ضد سير الزمن ، هذا السير الذي كان يعني بالنسبة اليه انتصار الروح البورجوازية، هذه الروح التي يمثلها في كتبه سفيدريفائيلوف في « الجريمة والعقاب » وكارامازوف الاب وسميراياكوف في « الاخوة كارامازوف » ، هذه الروح التي تعني القسوة والعنف ضد الطبيعة والانسان جميعا ، قد ألقت به في أحضان عقيدة لم يستطع قط أن يقبلها بصورة مطلقة وان كان يجد فيها منفذ الخلاص الوحيد للتناقض الذي يمزقه ، وبالتالي منفذ الخلاص الوحيد للبشر جميعا .

وتصبح مؤلفاته الادبية بنتيجة ذلك ، وعلى الاخص اللاحقة للسجن منها ، ميدان صراع متصل بين ما يسميه الحقيقة والباطل . ان دوستويفسكي ينقل الصراع من خارج الانسان الى باطنه . ان أبطاله جميعا يتمزقون بهذا الصراع القائم في نفوسهم بين التأثير المغناطيسي للجشع البورجوازي من جهة ، والكراهية لمغريات هذا العالم البورجوازي من جهة ثانية ، لكن خالقهم ، دوستويفسكي ، يطلي هذا الصراع بطلاء آخر ، وهمي، فينقله من مستواه الحقيقي ، الارضي ، الى مستوى مثالي ، روحي ، سماوي اذا جاز التعبير ، ألا وهو الصراع بين الخير والشر في نفس الانسان ، بين الله وابليس ، أو بين الله ــ الانسان والانسان ــ الله حسب التعبير المفضل لدى دوستويفسكي وكل الفلسفة الدينية الروسية ، وهو صراع لا يمكن أن ينتهي الى حل حاسم، جذري ، بل لا بد أن يستمر الى الابد ، ما دام الانسان يعمر هذا الكون ، ربما لانه مجرد صراع وهمي ، لا حقيقة له الا في الخيال الانساني وحده . ان كارامازوف ــ وكل انسان هو في آخر تحليل كارامازوف آخر ــ يتأمل هاويتين في نفس الوقت الواحد ، لانه يشتمل في نفسه ، حسب تعبير ديمتري كارامازوف ، على « المثل الاعلى للمادونا والمثل الاعلى لسدوم » على حد سواء . كيف السبيل اذن الى التوفيق بين النقيضين ؟

وهكذا ينطوي الانسان على نفسه ، فلا يعيش الا من أجل ذاته ، أو على الاكثر من أجل علاقته بانسان آخر ، وهي علاقة ليست الغاية منها في أغلب الاحيان الا الكشف له أكثر فأكثر عن خفايا ذاته الخاصة . انه لا يعنى بما يجري حواليه في المجتمع ، في العالم على العموم . ماذا يهمه أعاش البشر أم ماتوا ، أأثروا أم أفلسوا ؟ ماذا يهمه في آخر تحليل القيصر ، وطبقة النبلاء التي تتخم على حساب الشعب ، والبورجوازية الصاعدة ، وطبقة الفلاحين التي تئن تحت النير الازلي ، أو تلك البروليتاريا التاعسة التي ليست ، في رأي دوستويفسكي ، سوى « قرح ناز » في جسد هذا المجتمع ؟ راحت أيام « المساكين » ، ولم يعد للانسان بعد اليوم من هم سوى التطلع في باطنه ومحاولة سبر أغوارها في سبيل حل « اللغز » الذي تنطوي عليه ، وتهدئة أعصار العواطف المنفلتة منه ، الصاعدة من تلك المنطقة السفلية ، البركانية ، حيث الهاويات التي لا قرار لها .

ولكن ، أين الفنان في ملء هذه التأملات الميتافيزيائية ؟ انه لم يمت ، وسيرة القديس اسحق السوري التي لم يكن دوستويفسكي يمل من اعادة قراءتها لم تطمس تلك الموهبة التي خلبت لب بيلنسكي ذات يوم ، فاستحلف الفنان الناشيء أن يظل لها مخلصا ، ان الفنان الحقيقي — دوستويفسكي هو مثل هذا الفنان — هو ذلك الذي يعبر عن واقع عصره ، هو تلك المرآة التي تعكس بأمانة مشاكل المرحلة التي يعيشها وعواطف الناس الذين يحيا معهم ومطامحهم وآلامهم . وهكذا تتسرب آثار دوستويفسكي جميعا ، حتى تلك التي أرادها أبعد ما يكون عن الواقع الاجتماعي المرير من حوله ، بحقيقة هذا الواقع ، ولقد كانت هذه الحقيقة في ذلك الحين تفسخ الروابط الاخلاقية والاجتماعية القديمة في مجتمع يجتاز مرحلة تبدل ومخاض ، ولا أخلاقية مجرمة يتميز بها المجتمع الوليد ، وأنانية بغيضة تميز الطبقة الجديدة المرتفعة الى سدة القوة والسلطان وبؤس يئن تحت نيره السواد الاعظم من الشعب الروسي . واذا كان لا يرى في هذه المرحلة من الانتقال الا هجرانا للمقاييس الاخلاقية التي كرسها الزمن ، والا تأكيدا للحق في الجريمة وفي الاستهتار بسائر المقدسات ، اذا كان يرفض النظام الجديد كليا وبدون تمييز ، بمعنى أنه ينكر الجانب الايجابي منه بالاضافة الى الجانب السلبي ، اذا كان يصيح بكل قواه : « اني لا أحب ما يجري في هذا العالم » ، ويرفض في الوقت نفسه كل فرصة جديدة تمكنه من اكتساب معرفة بالقوى الاجتماعية القادرة على تبديل واقع هذا العالم وما يجري فيه ، على مساعدة عائلة مارميلادوف مثلا في « الجريمة والعقاب » ، وعشرات الالوف من اخوتها الضحايا التي تئن ، وكثيرا ما تكتفي بمجرد الانين دون الاحتجاج ، فانه يحتج ، هو دوستويفسكي ، باسمها جميعا ، هذه النفوس التي سحقها البؤس ، وهذه الاجساد التي دمرها الفقر . أجل ان نفس الصيحة تنطلق من سائر مؤلفاته ، منذ «المساكين» حتى «الاخوة كارامازوف» ألا وهي صيحة الانسانية المعذبة التي لا يمكن اسكاتها قط ، الهاتفة أنها لم تعد تطيق هذه الحياة بعد الآن ، المعبرة من وراء عظمة ذلك التواضع الذي كان يريده دوستويفسكي أعظم من الكبرياء عن كل ما يختفي من غضب مكبوت ، وألم ثائر ، بله من كبرياء وتعطش الى الانتقام ، تحت ذلك المعطف الكاذب من التواضع المستكين ، أجل ، ان الثورة مهما كبحت ، فان لمثل هذا الكبح حدودا ، وهي ضمن هذه الحدود تظل ثورة مكبوحة الجماح . وأما تعاليم التواضع ، وأما التبرير المرائي للعذاب الانساني ، وأما المحبة المسيحية نفسها ، هذه التي يمكن كما يقول هرتزن أن تكون قوية جدا ، وأن تهرق كثيرا من الدموع ، وأن تكثر من الكلام ومن بعد تمسح دموعها ، ولكنها — وهذا هو الامر الاهم — لا تفعل شيئا ، فانها جميعا تذهب هباء منثورا ، اذ تغرقها في لجتها العارمة تلك الدمعة الوحيدة غير المنتقم لها ، الدمعة التي تذرفها طفلة صغيرة بريئة تتعذب ، والتي يرفض ايفان كارامازوف من أجلها وحدها كل فكرة «التناسق الالهي» .

دمشق — الدكتور فؤاد أيوب

# محطـة السبعة واربعين

قصة بقلم : سعيد حورانية

عنـدما يعرف الانسـان خصمه ، يعـرف خططه وأساليبه وطريقة المناورة ، يحس بلذة حينما يقاتله .. لذة تشبه الوجـد .. فها هنا عـدو كفء ، اذا انهزمت أمامه مرة .. فلن تشعر بالعار فأمامك معارك أخرى .. المهم ان جزءا عظيما من حياتك أصبح متعلقا بوجوده ، بألاعيبه ومفاجآته .. وكم هو شاق وبارد ، ذلك الفراغ الذي تحسه عندما تنصر الانتصار النهائي . ان مرارة الهزيمة أهون شأنا من ذلك الفراغ ..

ولكن طريق دير الزور الحسكة ، كان من هؤلاء الخصوم الذين لا يقهرون ..

فعنـدما يصل السائق الى دير الزور ينزل مـن سيارته فيفحص الفرامل ، ويكشف على الزيت ، ويطمئن على معيار الهواء ، وينظر الى سطح السيارة المليء بحقائب الركاب بقلق .. ثم يرمق الغيوم .. وبعد أن يسأل عن « الشيفروليـه » التي سبقته ، وعن « الدودج » الـذي سبق المطر الى الحسكة ، ويطمئن الى أن سائقيهما قـد أخبرا الدير بالهاتف أنهما وصلا بالسلامة دون تحدث حادثة .. يجلس وراء مقعده وينفخ يديه ويأخذ نفسا طويلا ثم يهمس :

– يا ساتر يا رب .

ويبدأ الصراع ..

في البادية يبدو المكر متخفيا وراء التراب فليس هناك طريق معين .. هناك الف طريق كلها تفضي الى الحسكة ، ومن الصعب الا اذا كنت قد أمضيت عشرة أعوام تذرع الطريق ، أن تعتمد على درب خاص تسلكه وكل سائق يزعم أنه يسير على الطريق الوحيد القصير السهل ، ولكنهم مع ذلـك كانوا كثيرا مـا ينقطعون في البادية يوما ويومين .. حتى تأتي سيارة الدرك وتنتشلهم من المستنقع الذي غاصوا فيه .

ذلك ان البادية تصبح بركة من الوحل في أعماق الشتاء ، وتظهر الدروب من بعيد وكأنها خطوط تفضي الى البحر ، وعوضا عن السراب الذي يأخذ بريقه الابصار في حمى الصيف تمتد أمامك برك حقيقية ، تحتار في أيها تخوض وأيا منها تتجنب .. لقد كشر الدرب عن أنيابه العكرة الرمادية ومد طرقه أمامك كأرجل الاخطبوط فيجرك قليلا قليلا نحو الاعماق الباردة ، وعند ذلك ، تصغر كل خبرة لهـؤلاء الدهاقنة العتق ، الذين ظلوا ينقلون الركاب بسياراتهم بين الدير والحسكة طوال عشرة أعوام أو تزيد .

وكم يبدو علم الجغرافيا في تلك اللحظات ، علما عاطفيا الى آخر حد .. فلم تبق الدير أو الحسكة هي الشيء المهم الآن .. المهم بضعة بيوت من اللبن والطين ، ومخفر درك ، وقهوة كراسيها مسنة متخلعة ، وماء آسن من تجميع قطرات المطر ، وبضـع ذبالات مـن أضواء تراقص في العاصفة برعب .. وتبدو هذه المحطة عاصمة الدنيا بالنسبة للسيارة وراكبيها فبعد مئة وثلاثة كيلومترات من الطين والوحل والبحيرات والانزلاق والتيه ، تظهر محطة السبعة وأربعين بر الامان ، حيث يتوضح بعدها الطريق ، ويصبح أسـود لامعا معبدا بالاسـفلت حتى الحسكة ..

ان علم الجغرافيا أمين على تسمية الاشياء باسمائها ، بما تشتهر به .. وهو قـد حبى هـذه القرية الحقيرة

بأعظم اسم في مخيلة سكان تلك المنطقة ، بالاسم الذي يبعث الامل والحب والمرح في قلوبهم ، بالرقم الواقف بين حدود الابدية المؤلفة من مئة وخمسين كيلو مترا •• ففرقها مئة وثلاثة ، وسبعة وأربعين • وأعطى للقسم الحي الضاحك هذا اللقب ( قرية السبعة وأربعين ) •

ولكن ماذا يعني كل هذا بالنسبة لمعلم منقول من السويداء الى الحسكة ؟

فعندما خرجنا من دير الزور كان الجو مجللا بالصمت •• وسقوط المطر متوقع بين لحظة وأخرى •• السماء عجيبة تتوازعها أصناف من الغيوم الثقال تنفصل وترابط الى ما لا نهاية ، وساعة المساء كانت مقبلة فلم نحس بها ، ذلك لاننا لم نر الشمس منذ أيام أربعة •

يا لها من نقلة بائسة •• فعندما تركت السويداء كان الثلج حتى الركب ، والصقيع يغرز في العظام كلسعة الكهرباء ، وطوال الطريق من السويداء •• حتى دمشق •• حتى حلب •• حتى دير الزور •• وأنا أرفع قدمي المتجلدتين عن أرض السيارة وأفركهما حتى أشعر أنهما جزءان مني •• بينما نزعت أخيرا انشوطتي حذائي نهائيا لاخفف من رصه عليهما • ولاول مرة •• رأيت رجلا عجوزا في الرقة ، يدفن رجليه في رماد منقل خبت ناره منذ لحظات ، وهو يتلمظ في لذة منكرة •

كان الشيء الذي يحتل تفكيري هو الفضول •• الفضول لكل ما أراه وأسمعه •• لهجةجديدة ، تصرفات جديدة مناظر جديدة •• وكنت أستنشق الحياة مع الصقيع ، فلم تكن الرحلة خيالية من المفاجآت والزخم بحال •• وكانت خيالاتي منصبة كلها على الحسكة •• القبائل البدو •• القتال •• العاصفة ، حيث لا يحجبك عن الريح والمطر الا نسيج من شعر مرقع الف رقعة •• عن الناس الذين تؤلف الخيل جزءا من أجسادهم عن الانسان الذي لا يساوي هناك الطلقة التي تتربع في أمعائه •• عن قصص الصحراء الخيالية حيث يعتبر رد فنجان القهوة اهانة لا يغسلها الا الدم ، عن المنسف الذي لا يقدر على حملة عشرة رجال •• وكنت أتصور البدوي •• ملك هذه الارض البالغة الاتساع ، كما يتصور الطفل أحد مردة الاساطير وكنت أتمنى أن أشهد معاركهم التي تدور في الليل حول اختطاف امرأة، أو انتقام لثأر أو ضيف ، أو سرقة بضع نعاج •• حيث يعلم الواحد منهم أين يضع رصاصته في ليل لا يعرف الانسان فيه مكان يديه •• أتمنى أن أسمع الاهازيج ومراثي القتلى واشم رائحة نارهم الخاصة •• يا له من عالم كبير •• كبير !!

* * *

كانت أضواء السيارة المندفعة تكشف عن أرض ممتدة كراحة اليد ، وقد يصطدم طائر مذعور ، أو فراشة حائرة في زجاج السيارة بين حين وآخر ، طيور متوحشة تعيش على النبات القليل الذي يتموج في بعض مساحات ضيقة من الارض ، وكان جاري السمين في المقعد يهوم ويشخر قليلا في صوت رتيب يتساوق مع هدير المحرك ويميل علي بجسده حتى ليكاد يسحقني ، فلا أستطيع بين حين وآخر الا أن أسعل في أذنه حتى يفيق ، أما بقية الركاب فقد استكانوا جميعا وانكمشوا في مقاعدهم وخفتت ضجة الحديث اللهم الا بعض همهمات غنائية كان السائق يسلي نفسه بها مرة بعد مرة •

انقطعت الهمهمة الغنائية فجأة وحل محلها صوت مذعور خافت •

ـ العمى !!

ونظرت اليه •• خيل الي أن عطلا ما قد طرأ على السيارة ولكنه مد يده الى ماسحة الزجاج وأدار زرها••

فعلى الزجاج كانت دموع كبيرة جدا تتزلج بسرعة وتغيض في النهاية متسربة على غطاء المحرك •• وتابع السائق بنفس الصوت الخافت •

ـ ابتدأنا ••

وأمسك بمقود السيارة بقوة ، وأصلح من جلسته،

ثم أشعل سيجارة وأخذ أهبته للمعركة المقبلة ..

ولكن المعركة كانت قريبة جدا .. فبعد لحظات ، أفاق ركاب السيارة جميعهم على زمجرة الرعد ، وخطف عيونهم لمعان البرق ، وطغى صوت المطر على صوت محرك السيارة نفسه . ارتفعت بضعة أصوات قائلة بغبطة :

ـ الله يبعث الخير

فأجاب السائق بغلظة :

ـ فهمنا الله يبعث الخير .. لكن ليس هنا ثم همس كأنه يبتهل .

ـ لو نصل فقط الى السبعة وأربعين !!

فقال أحدهم من ورائي وهو يتثاءب :

ـ توكل بالله يا رجل .. صار لنا ساعتان ماشين ، ساعة ثانية والسبعة وأربعين قدامنا .

أجاب السائق وهو ينفخ سيكارته بغيظ :

ـ أول البارحة ـ الله يبعد عنا ـ بطقت أربع سيارات كبيرة شحن ، واحدة تكسي .. غاصت كلها في الطين حتى منتصفها .. الارض شبعانة ، ونقطة مطر مثل هذه تثقبها كالمسمار ، بعد دقائق سنبحث لا عن الطريق لكن عن طريق بين الماء !!

فأجاب نفس الصوت :

ـ صل على النبي أبو ابراهيم .. مالك جديد هنا، فاني عمرك في الطريق .. ميسرة ان شاء الله ..

أفاق جاري السمين واستمع الى أخر الحديث ثم مال بجسده الى الامام وضرب على ركبتي دون أن يعيرني أي اهتمام ثم قال :

ـ الله يأخذ هيك حكومة !!

وحاول أن يعود للنوم ..

قلت له :

ـ السبعة وأربعين

فأجاب بلهجة متعبة

ـ السبعة وأربعين ؟ مالها السبعة وأربعين ؟

ـ ما معناها ؟ هل هي اشارة ؟

فتح جاري عينيه الى أخرهما بدهشة شديدةولاول مرة نظر الي من أسفل حذائي حتى ناصية رأسي بازدراء عظيم وقال بهدوء :

ـ منين أنت ؟

ـ من الشام .

فطقطق بلسانه عدة مرات قبل أن يقول :

ـ شامي آ .. أهلا وسهلا .. السبعة وأربعين ؟ الآن سترى ما هي السبعة وأربعين .. مدينة عامرة ( واهتز كرشه بضحكة خفيضة ) سترى أن الوصول الى بيتك لا يشعرك بالراحة مثلما ..

وقطع حديثه فجأة ونظر الي بنوع من التحدي :

ـ ستتعب كثيرا هنا .. الشام ظريفة آ ( ولكزني بمرفقه ) أنت ملا آ ؟

وسكت كأنه ينتظر ردي ، أما أنا فقد شعرت بشيء من المهانة للطريقة التي يتكلم بها ، ولما لم أفتح فمي بكلمة ، فقدت كل ما يشعره بوجودي في لحظة واحدة .. اغمض عينيه الخضراوين الغائضتين في كتلة من الشحم المترهل وعاوده النوم بسرعة .

كنت أحس أن أعصاب الركاب جميعا متوترة ، فبعد السكون العميق الذي كان يخيم على الجو .. أخذوا جميعا يتكلمون ، كانت أحاديثهم بمجملها منصبة على المطر .. وكانت القصص تروي عن ( البطق ) حيث تنقطع السيارات أياما في البادية .. وزعم أحدهم ان سيارة ركاب كبيرة قد نهبها البدو ، وان المسافرين صاروا يأكلون الحشائش حتى انهم ذبحوا كلبا شاردا اجتذبته رائحة الانسان وأطعموا من لحمه الاطفال ، بينما قال آخر أن سيارة الدرك المعدة لانتشال السيارات المنقطعة ، معطوبة منذ يومين . وهي جامدة في السبعة وأربعين ، وان تصليحها لا يتم الا في حلب أو دمشق ، وكان الفلاحون الذين كانوا ورائي يتحدثون بسرور عن سنة الخير هذه وعن أن الارض قد شبعت ولن تحتاج بعد الى أمطار أخرى .

اشتدت زخات المطر حدة على زجاج السيارة وكنا لا نرى من خلال المدى التي تطاله أضواء السيارة الا هذه الخيوط المتدفقة من الماء .. وأخذت السيارة ترجرج وهي تنزلق في البرك وتنحدر في الحفر، ثم تثب من جديد .. وخيم الصمت .. صمت متوفز قلق، العيون كلها تنظر عبر الطريق واستمر الصمت حوالي خمس دقائق ليقطعه السائق بصوت يائس :

ـ يلعن دين والدك !!

هب الجميع ورفعوا رؤوسهم الى الامام، واستفاق جاري دفعة واحدة . لم نعرف ماذا يعني السائق بشتيمته، ولكننا كنا جميعا نشعر أن شيئا ما مخيفا قد وقع، انحنيت على الزجاج الامامي فاذا بالسيارة تسير في بحيرة حقيقية .. الماء يجري فيها هادرا كأنه الفرات، والسائق يراوغ ذات اليمين وذات اليسار بدون فائدة، فالاضواء كانت لا تقع الا على الماء العكر ..

وصاح صوت :

ـ بطقنا يا جماعة ..

وكانت هذه الكلمة قد فتحت كل ما خزن في قلوب هؤلاء الركاب من كلام .. فأخذوا جميعا يتحدثون دفعة واحدة :

ـ الحق على السائق .

ـ ترك الطريق الزين ومشى بالماء ..

ـ يا جماعة روقوا بالكم وصلوا على المصطفى .

ـ الولد مريض وما بقدر على تحمل البرد .

ـ والله بخمسة أيام لن يجدونا

قال جاري السمين وهو ينظر الي وكأني أمثل عنده دمشق والحكومة التي فيها .

ـ الله يأخذ هيك حكومة .. شاطرة بس تأخذ مصاري العباد وتتركهم شاردين بالشول . صرخ السائق بصوت كالرعد علا على كل الاصوات :

ـ بس يا جماعة .. العمى .. بيعونا سكوتكم .. عميتم قلبنا .. يلعن دين أبوها الصنعة ودين السيارات ودين اللي ابتدعها .. ودين اللي يركب بيها .. والله ركب الحمير أشرف . بشرف النبي ..

ولم يكمل السائق صراخه فقد أحسسنا بخبطة هزتنا، ثم وقف المحرك فساد سكون عميق ..

أدار السائق المحرك مرة ثانية وكبس بقدمه على المسير فأخذت السيارة تهتز وتلهث بدون فائدة .. دفع بقدمه الى أخرها وبدا صوت العجلات كأنين حيوان مذبوح، ولكنها كانت تدور في مكانها لا تتقدم خطوة واحدة .. وشممنا رائحة المطاط المحترق من فرط الاحتكاك .

أطفأ السائق المحرك ونزل يستطلع الامر .. فتعالى صوت بكاء طفل مع همهمة ساخطة لشيخ عجوز .. وبعد قليل عاد السائق ورجلاه حتى الركبتين ملطختان بالوحل .. فجلس على كرسيه وتنفس بهدوء كأن مهمته قد انتهت، بعد أن ظل ساعات يعيش على أعصابه ثم قال :

ـ سمك الطين أربعون سانت .. يجب أن ندفعها . ساعدونا يا شباب .

سأل أحد الركاب :

ـ هل السبعة وأربعين بعيدة ؟

ـ أظن انها على مسير ساعتين !!

ـ نمشي أشرف .

ـ يا حبيبي على الحمية .. والسيارة ؟ نتركها ؟ نلعنها ؟ الكل قادرون على المشي ؟ . أما شباب زفت .. قال رفيقي السمين

ـ لا تضيعوا الوقت بالعلك .. يالله يا جماعة انزلوا نرفعها .. هي دفعتان وتطلع .. الرجال يزحزحون الصخر .

نظرت الى بذلتي اليتيمة برعب .. كيف أنزل في هذا المستنقع الموحل ؟ .. من الذي سيزيل البقع عن البذلة في بلدة ليس فيها كواء واحد ؟ .

ولكن نظرات جاري جعلتني أنهض بتثاقل فلكزني بمرفقه مبتسما :

ــ هيه شامي . هــل فهمت الآن مــا هي السبعة وأربعين ؟ قل معي الله يخزي هيك حكومــة .. انزل أخوي انزل .

رفعت ساقي البنطال حتى ركبــي بعــد أن نزعت حذائي وجواربي .. بينما كان السائق يقول بشراســة لبدوي غارق بمقعده لا يتحرك :

ــ وأنت يا أبو الفوارس .. قاعد مثل النسوان ؟ .. تحرك ..

ولكن البدوي قال بهدوء :

ــ والله ياخي لا أقدر .. أنا ســاخن والبارحــة طلعت من مستشفى الدير .

ــ باطل باطل معافى .. قالها بسخرية مرة .

أجاب البدوي بهدوئه السابق : ــ الله يعافيك .

غصنا في الوحل .. وتوازعنا أمكنتنا على أطراف السيارة كان جاري السمين يقود الحملة .. أنت يا عم ايدك على الرفراف وأنت امسك من هنا .. يا الله ياشباب بالله اليوم يومكم واحد اثنين ثلاثة ..

كان نصيبي أن أقف وراء العجلة الخلفية . فعندما أطلق السائق المحرك شعرت أن أثقالا مــن الطين قــد انحطت علي ، ولكنني دفعت مع الرجال ودفعت ، وظلت العجلات تئن واستطعنا أن نحرك السيــارة مترا مترين ولكنها كانت مع ذلك تغوص كلما تقدمت ، وبدا اننــا ندفعهاالى جب عميق وان لا فائدة من أي شيء . وارتفعت الاصوات :

ــ ما في فايدة المشي للسبعة وأربعين أشرف .

ــ ناس يحملون الاطفال وناس الامتعة .

ــ السبعة وأربعين قريبة مشي ساعتين وبس . في تلك اللحظة رأيت البدوي المريض يمد رأسه من الباب وينزل . كانت عيناه السوداوان تتفحصان الافق بنظرة ، وقف يستمع الى الاقوال بصمت .

قال السائق من الداخل :

ــ أنا سأنام بالسيارة .. اتركوا الامتعة وابعثوا لي من السبعة وأربعين سيارة الدرك .

فرد عليه أحدهم بغيظ :

ــ الله يأخذك ويأخذ سيارتك .

ــ الله يسامحك .. يا جماعة انظروا الى خلق الله .. أنا ما هو ذنبي ؟ هذا مطر ؟ هــذا ســيل .. يلعن دين ..

قال البدوي فجأة بصوت خافت :

ــ هذا ليس طريق السبعة وأربعين هذا طريق الرقة .. تهنا عن الطريق

ــ ماذا ؟

قالها الكل باستنكار وغضب ، وحدجوا البــدوي بدهشة بينما غمغم السائق :

ــ ليك المسطول ليك .. روح بــول على نفسك ونام .. أنت رايح تعلمني صنعتي ..

ولكن البدوي قال :

ــ السبعة وأربعين بعيدة أكثر من عشر ســاعات مشي ، هذه أراضي عشيرة جبور .. هذه أراضي عشيرة جبور .. هذه أرض مفلوحة وليست أرض بور .. أنا أعرفها زين .

ــ ليك التيس ليك ..

قالها السائق وقد شعر بالقلق ونزل يستطلع .

وتابع البدوي كلامه :

ساعتين مشي مغرب نصل لمشروع مفلح الجدعان ، أحسن شيء أن نسير الى هناك !!

مد جاري السمين يديه في الماء ثم رفعهما ونخــر غاضبا :

ــ أي وربي أرض مفلوحــة ، ضاربك العمــى وطالع من الطريق ، صار لــك ساعة تسب وتشتم وأنت تيس بن تيس ..

ـ لا يا سيدي أنت تيس وأبوك تيس ابن الف تيس • وتصايح الاثنان ففرقهما المسافرون • وانصرفت الافكار الى الخروج من المأزق قال السمين للبدوي :

ـ تعرف الطريق زين لمشروع مفلح الجدعان ؟

ـ أعرفه زين •

ـ أنا من جهتي سأذهب معك من يروح ؟

وساد بعض الصمت ثم وافق اثنان اخران فنط الي جاري وقال :

ـ انت ملا •• معلم أفندي •• تروح معنا ؟

نظرت الى البدوي فوجدته واثقا من نفسه بصورة مطلقة ، وقرنت الامر من كل وجوهه ثم قلت :

ـ أنا معكم ••

ـ يا الله يا جماعة •• اتركوا من هناك ـ اذا يسر الله ووصلنا ـ معونة وأكل •• الله معكم ••

وعندما ابتدأنا السير ونحن نرفع رجلا من الوحل لنضع أخرى ، انضم الينا ثلاثة أخرون • أخذنا نتبع البدوي صامتين ، لا نهتدي خلال الظلام الدامس الا على صوت وقع أقدامنا في الماء •

قال جاري السمين الذي كان الى جانبي :

ـ هيه شامي •• ستتعب كثيرا •• هاي الجزيرة وليست الشام •• قول معي الله يأخذ هيك حكومة •• آ؟ **قول يا ملا قول ••**

* * *

كنا اعجب قافلة في الدنيا •• لقد أصبحنا جزءا من الطبيعة •• فلم يعد يؤثر فينا البرد أو المطر •• التصقت ثيابنا بأجسادنا وهي تعصر ماء •• الحقيقة الكبيرة التي كنا نشعر بها هي المطر والظلام ، وهذا البدوي الغامض الصامت الذي كان يسير كأنه قطعة من الليل ، أحسست شيئا فشيئا انني انفصل عن العالم القديم ، وانني بسبيلي الى دنيا جديدة قاسية وفظة ولكنها أصيلة ، دنيا لا يفتن فيها سوى عريها اللا نهائي وصراحتها المطلقة ، لا أدري بماذا تفكر هذه الرؤوس السبعة التي ترافقت معها •• لعل كلا منهم يحلم ببيته ودخان أعواده المحترقة وزوجته وأولاده •• بالدفء ، والشمس ، والربيع ، وموت الجابي ، والانتهاء من الحكومة أو المالك • كان كل منهم يحمل سره معه ويطويه في صدر أعمق من ظلام هذا الليل الرهيب • أما أنا فلم أكن أحس بأية خيبة أمل ، رغم انني لم اكد اغمس لقمتي في هذا الطعام المسموم •• ورغم ان الامور جرت بسرعة مذهلة حتى كنت لا أقوى على التفكير •• لقد كنت اتصرف باستسلام من دهمنه موجه فترك نفسه لها •• لكل آلامها وافراحها •• لم أفكر بالمقاومة والا كنت ناشزا في هذه السمفونية الفاجعة •

كنت أحس مع كل نقلة مؤلمة من قدمي انني اعبد طريقا جديدة ، وان كل الامي أصبحت ضرورية الام المكتشفين والمغامرين •• وشعرت انني أضع قدمي على أرض موات ستخصب بالموت أو الفرح ، ها هنا تبدو كل أفكار الانسانية متساوية مع عري الحياة البدائي •

قطع جاري السمين الصمت بصوت غاضب :

ـ ولك يا ولد •• مشينا أكثر من ساعتين • فين قرية الكلاش ابن الكلاش مفلح الجدعان هذا ؟

فأجاب البدوي باقتضاب :

ـ قربنا نصل •• الصبر زين والعجلة شين •

ـ أخاف أن لا تكون تهت أنت الآخر •

فردد البدوي بصوته السابق :

ـ قلت قربنا نصل •• الصبر زين والعجلةشين••

ـ فين ساكنة جبور ؟

ـ مغرب

ـ أي جبور ؟

ـ جبور الفاضل •• جانب حرف الجبل •• عند البقارة

ـ بكارة الجبل ؟

ـ أي نعم

ـ الشيخ سليمان صاحبي

فلم يرد البدوي .
ـ من أي عشيرة أنت يا ولد ؟
ـ شرابي
ـ شرابي ؟
ـ نعم ..
فأجاب السمين بتردد :
ـ تشرفنا ..
ثم قرب علي وهمس :
ـ الشرابين مشهورين بسرقة الخيل ..
ورفع السمين صوته :
ـ الشيخ حاتم فين ساكن اليوم ..
ـ مغرب الحسكة .
ـ ولد زين .. صاحبي
فلم يرد البدوي أيضا .
ثم ساد الصمت من جديد .
وبعد مسيرة حوالي ربع ساعة قال البدوي وهو يشير أمامه ـ وصلنا !!

.. أمعنت النظر جيدا باتجاه اشارته ، فلم أر شيئا مطلقا سوى الليل المظلم ، ولكنني ما أن تقدمت عشر خطوات حتى سمعت نباح كلاب بعيدة أخذت تقترب ، وبدت بيوت اللبن والطين سوداء كقطع من الليل .. وأخذت الكلاب تقترب بنباحها المتوحش . صاح البدوي فينا :

ـ أجلسوا على الارض ..
فلم أفهم شيئا من جديد :

ـ اجلس على الارض .. الكلاب متوحشة ولكنها لا تهاجم الجالسين ..

ولم يكمل كلامه .. وصلت الكلاب الينا في اللحظة التي تربعت فيها بالطين .. فتحلقت حولنا وأخذت تنبح بشراسة وعيونها تضيء في الظلام كجذوة حمراء . كان قلبي يخفق برعب وتذكرت بعض حوادث كلاب العرب التي تمزق الناس في الليل كالذئاب الضارية .

انفتح باب قريب فظهر خيط عريض من النور ووقف على عتبته شخص طويل ضخم في فمه سيجارة .. يلبس بنطال ركوب الخيل ، وجزمة طويلة عسكرية وعلى جنبه موس ، وبدا لي كأحد أصحاب القصور القساة كما تصورهم الافلام السينمائية .

صاح بصوت غليظ :
ـ من هناك ؟
فأجاب السمين بصوت متحشرج :
ـ ضيوف مقطوعون .
ـ منين ؟
فقال البدوي :
فقال البدوي :
ـ انقطعنا بالسيارة يا مفلح بك ..
فأجاب الصوت يتردد :
ـ يا حياكم الله ..

كان الحوار يجري متقطعا بين نباح الكلاب الهمجي فصرخ بها مفلح :
ـ كوش كوش .. كوش ..

فابتعدت الكلاب وهي ترسل شرارات نظراتها الغاضبة الينا .. وقمنا ونحن لا نتحامل على نفسنا وتقدمنا الى المكان المضيء ..

وأفسح لنا المضيف الطريق فدخلنا الى مضافة كبيرة دافئة جدا ، في منتصفها ركايا القهوة مع كمية كبيرة من الجمر .. وعلى المخدات كان يجلس رجال كثيرون نظروا الينا بصمت وعجب .

* * *

منذ عشرين عاما نقل ضابط درك في الاربعين من عمره الى الجزيرة .. كان يبدو قاسيا جلادا أمام الفلاحين .. وكانت العشائر التي لا يجسر أحد على التعدي على تخوم أراضيها سواء أكان المتعدي ابن حكومة أو غيره تقول : ان الجزيرة لها بلاءان ضابط الدرك الجديد وانحباس المطر .

وبقدر ما كان ضابط الدرك الكهل متكبرا أمام الناس كان أية في اللطف والكياسة مع الفرنسيين ، فكانت ترقياته تتالى بسرعة غريبة •• وهذا الضابط الذي جاء من دير الزور يدا من قدام ويدا من وراء ، أصبح بسرعة البرق من أصحاب الثروات الضخمة •• فكل مخفر درك في طول المحافظة يعرف هذه الحكمة : ما لقيصر لقيصر وما لمخفر الدرك لمخفر الدرك •• فكانت غنائم وأسلاب اليوم من شوال برغل الى تنكة سمن ومن خروف سمين الى عشر دجاجات منقنقات • ومن عشرة كيلوات تنباك الى ثلاثمئة بيضة •• عدا عن الاموال العينية •• كل هذه الغنائم كانت تقسم قسمين قسم الى ضابط الدرك وقسم للمخفر •• وكان النظام يثير الاعجاب حقا ، فلا سرقة ولا تلاعب فلكل مخفر دركي خاص سري لا يعرفه الاخرون هو عين القائد على الاسلاب حتى لا يخفي أي مخفر شيئا من محصول اليوم ، وكان لهذا الجاسوس راتب خاص لا يتقاضاه الا في مركز القيادة ؟ •• اذا صدف أن تلاعب دركي في المحصول أو قصر في فنون استجلاب الرشوة فالويل له •• اذ انه يتهم فورا بأنه سارق جبان عربيد معتد على الفلاحين ، فيسرح أو ينقل مع الاهانة والطرد ، ولكننا نستطيع أن نقول أن هذه الصفة المشينة لم تلصق بأحد من أتباع القائد الباسل ، فقد كانوا مثالا لقائدهم في الامانة والحرص على أموال الدولة وأموالهم الخاصة ••

واشيع عن القائد انه يخاطب دمشق رأسا بالتليفون ، وان الفرنسيين في الحسكة والدير حتى في حلب يتمنون له كلمة ، وان له نساء كثيرات ، اكثرهن قد تزوج بهن خطفا كرجل حقيقي لائق ببذلة العسكرية ، وانه لم يعترف على أية منهن بأولادها بل ارجعها الى أهلها معززة مكرمة بعد أن أتاح لها شرف مضاجعته بعض الليالي •

وبقدر ما كان اله الجزيرة هذا يكسب من منصبه كان يبذر كل ذلك على طاولة القمار •• فمجرد حصوله على مأذونيته السنوية ـ ويظهر أن نظام السنين كان في ذلك الوقت مختلفا عما هو الآن اذ انه كان يحصل في كل شهرين تقريبا على مأذونية اسبوعين يشاع فيها انه ذاهب الى تصريف أمور الدولة في دمشق ـ يذهب الى بيروت أو عالية أو بحمدون أو صوفر فيصرف أمواله كلها ويعود فقيرا متساويا مع رعيته التي تشفق عليه فتجعله غنيا من جديد ••

وفي عهد الاستقلال •• بدأ نجم القائد يأفل قليلا لا لان المسؤولين في ذلك العهد قاوموه لاعتبارات وطنية ، بل لانه أغضب بعض المتنفذين المالكين لاراضي الجزيرة والذين كان وزير منهم ممثلا في الحكومة •• ولذلك ، وقبل ان يحال على التقاعد ، بطريقة بارعة من طرقه الكثيرة ، استطاع الحجز على أرض كبيرة واسعة بين أراضي جبور والبقارة ثم اشترى بعض القضاة فسجلوها باسمه فلما أحيل على التقاعد ، لجأ الى أرضه يوسعها •• وبمعاونة دركه السابقين صار يقتطع جزءا من الاراضي المحيطة به حتى استطاع ان يصبح من هؤلاء العشرات الذين يملكون أكثر من مئتي الف دونم •

هذا القائد الهمام هو مفلح الجدعان مضيفنا الكريم الذي وقف يرحب بنا بطريقة أشعرتنا اننا أمام سيد عظيم •

نظر الى ملابسنا الموحلة المبللة والى هيئاتنا المحزنة ، ثم وقع بصره علي :

ـ منين الاستاذ ؟

ـ من الشام

ـ معلم ؟

ـ نعم •

فابتسم ابتسامة عريضة ثم قال :

ـ شايف الجزيرة ؟ لاجل أن تعرفوا ماذا نقاسي هنا نحن المزارعين المساكين !! قوم يا عبود وأنت ياصالح اعطوا الاخ عباية وكذلك الاخوان وجففوا الثياب على النار •

* * *

شعرت بلذة غريبة في هذا المضافة الدافئة جدا وأنا أتصفح هذه الوجوه القروية الخشنة .. دارت القهوة مرات ومرات في صمت لا يشوبه سوى عواء الكلاب من بعيد ، وغاب عنا مضيفنا لحظات بعد ان رافقه ستة من الحاضرين .. ثم عاد وحده وقال وهو يتنهد :

ـ أمنا كل شيء .. راحت المعونة على السيارة ، فقال رفيقي السمين بتأن :

ـ كلك شهامة يا مفلح بك ..

ـ واجبنا .. أهلا وسهلا ..

وسكت قليلا وتابع :

ـ خبرنا الدرك .. معلومكم يوجد مخفر درك عندنا ، ولكنهم كانوا مشغولين جدا فاضطررت لارسال جماعتي . قلت متسائلا :

ـ مشغولين ؟ وفي مثل هذه الليلة ؟ .. ان التقاط هؤلاء المسافرين أهم من كل شيء .

فأجاب المضيف وهو يرفع حاجبيه :

ـ في مثل هذه الليالي تكثر السرقات .. حولنا بعض الشرابيين وهم كثيرا ما يسرقون القرى منتهزين فرصة العاصفة . فتنحنح دليلنا البدوي ولكنه لم ينطق بكلمة ..

كنت ولا شك سعيدا في العباة الفضفاضة جو دافيء .. ودخان تركي مهرب في غاية الجودة ، وشاي ساخن يدار في كل لحظة .. وروائح لحم ينضج تتسرب من شقوق الباب .. وفي صدر المضافة ، كان يطل من حين لاخر من وراء زجاج نافذة صغيرة مفردة ، وجه نسائي عذب ذو عينين واسعتين متوحشتين كعيني الغجر تسدل على صدغيه جديلتان قائمتان منقوشتان بعض الشيء ..

وكانت تنظر الي نظرة طويلة خالية من أي معنى .. ولكنني كنت حالما .. تصورتها واجمة معذبة تعيسة .. فكأنها احدى بنات القصور وقد اختطفت من بين يدي حبيبها لتزف الى سيد متسلط آخر ..

ـ الشام .. الشام .. انهم يقولون هناك بحسد ما أغنى الجزيرة .. ان الاشخاص الذين يملكون هذه الاراضي هم في أعلى درجات السعادة .. انهم يقولون ذلك وهم جالسون على مكاتبهم المريحة .. لا أتمنى عليهم الا أن يذوقوا ليلة واحدة من ليالينا كما ذاقها الاستاذ..ليعرفوا ما معنى نجوم الظهر !! ما معنى الوحل والطين والغبار والبراغيث والثعابين ورائحة البدو التي تقزز النفس ، وليروا البدويات وهن يدهن شعورهن ببول الجمال .. ليشعروا بالرعب كل يوم لان ظل البنادق معلق فوق رؤوسهم .. انهم يحسدوننا على أرض مسمومة .. على أرض ملعونة ، تعطيها شبابك وصحتك ورفاهية حياتك فلا تبوء اخر الامر الا بمأمور الضرائب والحاسدين ..

وبدا الوجه الغجري ينظرته الغريبة من وراء النافذة ، وثبت عيونه علي فخفق قلبي وامتقعت ، ونظرت الى مضيفي ولكنه كان لا يلحظ شيئا بل ظل متدفقا في حديثه وهو يمدد رجليه على اخرهما على بساط المضافة :

ـ نموت في سبيل جر الفرات أو الخابور الى القطن ثم تأكله الدودة .. ونحرث الارض في انتظار المطر ثم تنظر الى السماء فاذا بها كأنها قد سدت بالنحاس من جميع أطرافها فلا تنفذ منه قطرة .. وأخيرا عندما يكون المحصول الضئيل قد أكل حياتنا يسرقه الفلاحون الانذال ، لفها يا رجل لا يوجد أحلى من الشام وماء الشام وبنات الشام .

كان صوت مضيفي بعيدا كأنه همس ، لا شك انني كنت أحلم .. أحلم بدنيا خضراء خضراء الى نهاية الافق .. أحلم بالفجر ، وركوب الخيل ، أحلم بغرفة دافئة مطلة على لوحة طبيعية لا يمكن أن تقلد أو تتكرر

•• أحلم بالصحراء يحرقها الجفاف ، أحلم بالحب والنشوة والفرحة والشباب • أحلم بوجه عيناه غجريتان متوحشتان تنوس على صدغيه جديلتان قاتمتان منفوشتان بعض الشيء •

* * *

ـ سيلانس

قالها مضيفنا ذلك العسكري المتقاعد فجأة بصوت كالرعد ••

ـ ماذا ؟ •• قلناها ونحن وجوم لا نقوى على الحركة !!

ـ مهلا •• انتظروني •• هناك حادث •• اسمع طلقات نارية صادرة من مكان بعيد •

وهب ويده على مسدسه ، وما كاد يفتح باب الغرفة حتى دخلت مع الريح الباردة أصوات طلقات اخريات صدرت من مكان قريب جدا !!

وسمعنا أصوات أقدام تخوض في الوحل وسباب ولعنات بلغة حاقدة وهمهمة كالفحيح ثم اختفوا •

خرطش مضيفنا مسدسه وخرج كالسهم من باب المضافة يعدو •• ونظر بعضنا الى بعض ثم اندفعنا وراءه تتلفت يمنة ويسرة •• غاصت رجلاي الحافيتان النظيفتان في الوحل ودخل الهواء الى العباءة وتلاعب بها •• ولكني لم أكن أفكر بسوى الركض وراء مفلح الجدعان لاية غاية ؟ تحت أية قوة ؟ لا ندري سوى أننا كنا نركض وراء الطلقات •

الظلام حالك جدا •• وكنت اصطدم تارة بعجوز هائمة اقلقها الرصاص ، أو بحيوان ضائع أقلقته الضجة، حتى وصلنا الى السوق وهنا كانت بعض أفراد من فلاحي أراضي مفلح الجدعان ينتظرون • لا شك انه حادث رهيب اسقط أفئدتهم الواهنة وبعث الهلع في قلوبهم المطمئنة •

هذه سيارة درك عتيقة أتت تعدو بسرعة وهي تقاوم الوحل فتصورت الدم •• النقالات •• وقفت السيارة أمام المخفر ووقفت القلوب وحبست الانفاس فلن تسمع فحيحا ولا همسا •

نزل دركي من السيارة صائحا :

ـ ناولني اياه !!

فناوله اياه •

كانت جثة ضخمة جدا لفلاح •• وعلى أضواء المصابيح المتراقصة التي جلبت من البيوت رأيت وجهه الممتقع • المخضب بالدم والثقب العميق الذي يتوسط جبهته ولحيته البيضاء المشوشة وكانت عيناه الصغيرتان مفتوحتين على نظرة دهشة ورعب •

نظر الدركي الى مفلح الجدعان والى الوجوه التي تجمعت حوله وقطع الصمت قائلا بنبرة انتصار :

ـ لقد طاردناه طويلا وأخيرا اصطدناه •

وضحك بغباوة مثيرة •

وقال مفلح الجدعان مستفهما

ـ ولكن ماذا فعل ••

ـ سيدي كان يحاول السرقة ولقطناه بالجرم المشهود ••

وأسرع الى السيارة يفتح بابها وانزل كيسا صغيرا مليء بأوراق خضراء مبللة قطفها الفلاح الشيخ من حرج قريب تابع للحكومة ليطعم بها معزاته الجائعات !! وطورد من أجله ، ودوت فوق رأسه رصاصات قاتلة ، وأصوات قاسية كانت تقول له قف •• قف والا •• وها هوذا يقف ، ويستدير رافعا يديه وهو ينشج بتوسل : وها هي رصاصة محكمة تستقر بين حاجبيه • ونظر الينا مضيفنا ثم قال وكأنه يتابع حديثه :

ـ أتعبنا أنفسنا بحادثة تافهة •• الم أقل لكم ان الفلاحين لصوص ؟•• جنس عاطل يستحق الشنق •

ثم استدار الى المضافة ••

دمشق ـ سعيد حورانية

# صورتان

شعر : محمد الحريري

يا ليتني كنت المصور ... يبتغيك فلا يرد
يجري على الخدين أنمله ... فلا يحتج خد
ويصف شعرك أو يبعثره ... على النمط الاجد
لم يرضه نور يهل عليك ... أو ظل يمد
فيثور ينهر هذه الشمس ... التي لم تتقد
ويعاتب الظل المولـه ... كيف جاوز كل حد
ويعود يستجلي الزوايا ... هل رسخن على سند
وهل انتظمن فكل زاوية ... لثانية مدد
الزند عون للخدود ... وان تباعد أو شرد

والانف أغنية الجبين ... تسربت لو لم تصد
جسد اذا ضل انسجام ... دله هذا الجسد
هو في اتساق رائع ... فمتى المصور يستعد ؟
ومتى يهيىء لقطة ... تطوي الجمال المستبد
قد هم فارتعشت يداه ... وذرعينا واحتشد
فتسابقت عيني وآلته ... لرسم منفرد
هو باللسان يعد ... والخفقات من قلبي أعد
ولقد أخذنا صورتين ... لكل واحدة صدد
رسم على روحي ورسم ... في بطاقته جمد

# النغم الضائع

بقلم : هند ميرزا

**الى الروح الشاعرية الخفاقة في دنيا الارواح .. الى الروح الجميلة الخالدة التي شربت الادب صافيا سلسبيلا منه دبت الحياة في أعطافها ، ولما تمهلها الاقدار لتسكبه شعرا عذبا وأدبا خالدا .. اليك أيتها الروح المتعالية في سمائك ، المحلقة في أجوائك ، أهدي بعض خلجات النفس الآسية في ذكرى رحيلك الابدي .**

مع تفتح البراعم الغضة الندية بنسائم الربيع المنعشة، تفتحت عيناه للنور أول مرة . كان ذلك سنة الف وتسعمائة واثنين وعشرين ، في مطلع الربيع الضاحك الذي طبع الوليد الرقيق بطابعه فما فارقه أبدا ..

ونشأ في جو أدبي خالص ، فوالده المرحوم ابراهيم ميرزا كان من أوائل متذوقي الادب ومحبيه بشتى ضروبه ، من شعر ونثر الى جانب التاريخ والسياسة وكان لذلك الفضل الاكبر واليد الطولى في توجيه زهير الوجهة الادبية الصحيحة ، فما اقترب من أبيه مرة يسأله أمرا الا وجده يلتف في عباءته والكتاب بين يديه ، تجوز عيناه السطور ، وتقلب يداه الصفحات دون كلل ولا ملل . فكان زهير يأتي بألعابه ينثرها على الارض أمام والده ، يلهو بها حينا ، وينصرف عنها الى مراقبة أبيه أحيانا . وكثيرا ما فاجأه الاب وهو يطيل التحديق فيه منصرفا عن ألعابه وملهاته ، فيناديه برفق ويجلسه بتحنان تحت عباءته ، فيستكين الطفل طويلا في أحضان والده ، تعدو عيناه وراء الكلمات ، وتسير بين السطور ، وتتنقل مع الصفحات كلما بدل منها والده دون أن يفقه شيئا .

وفي الرابعة عشرة من عمره بدأت مخايل النبوغ تلوح في عينيه وترسم سطورا في جبهته العريضة المتسامية .. فكان يمضي ساعات المساء الطويلة يلتهم ما حوته مكتبة والده من كنوز ومعالم . بدأ بالمنفلوطي يقرأ مؤلفاته وتراجمه ، وانتهى مع المعري في مطلع شبابه ، فكان يتنقل من المعلقات الى كتاب الأغاني ، ومن المتنبي وأبي تمام الى الغزالي وابن خلدون ، ومن أبي فراس والبحتري الى شوقي ومن ابن تيمية الى حياة محمد .. الى آخر ما حوته المكتبة الواسعة من كنوز لا يدركها حصر .

وراح ينهل من ذلك النبع الصافي ، ويعب من معين المعرفة والعلم في سن كان فيه أقرانه يلهون ويمرحون ، يمضون نهارهم بالتسكع وأماسيهم بطلب اللهو والمتعة ، وهو عاكف على القراءة لا يرضى عنها بديلا ، يقبل عليها بنهم ويفارقها في أواخر الليل على شوق وأمل لقاء ، فما تكل له عين وما يمل له قلب ، كلما استزاد يبغي المزيد ، حتى اشتكت عيناه الاجهاد ، فمضى به والده الى طبيب العيون منصحه أن ينقص ساعات القراءة . وكان لا بد للنظارة أن تستقر الى عينيه وما فارقته بعد ذلك أبدا .

ترى أيعقل لفتى في مثل سنه أن ينحو هذا المنحى الشاق العسير ، وأن يسير في هذه الطريق الصعبة الطويلة التي سار عليها الكثيرون ولم يصل نهايتها الا قلة ضئيلة دون أن يكون لديه هدفا يصبو اليه ؟

نعم لقد كان لديه هدف بعيد المنال راح يتضح ويتراءى من بعيد عندما استوى عوده وانشأت ربة الشعر تحوم حوله ، ترف عليه بجناحين من نور ، تضمانه برفق ، تنفث فيه من جميل وحيها وسحر الهامها ما يطلق القلم بين أصابعه يحاول أن يرسم خلجات نفسه ، ويعبر عن مشاعرها المستفيضة .

وهكذا بدأ انطلاقته الاولى في دنيا الشعر ، يحلق بجناحين صغيران لا يسعفانه على التحليق بعيدا وهو في السادسة عشرة من عمره . فكان شاعر المدرسة يتداول زملاؤه أشعاره ، ويمتدح أساتذته خطواته الاولى في عالم جميل ساحر ، يدفعونه الى فريد من الجهد كي يجني فريدا من الابداع والانطلاق .

وأنشأ الوالد الاديب يرعى بعطف واهتمام هذه النبتة الطيبة ، ويرقب في انتباه هذه البوادر الخيرة تصدر عن ابنه تحقق آمال حياته وأمنية عمره أن يكون شاعرا

أديبا • فقد كان ذواقا جوالا في عالم الأدب بيدأن السياسة جرفته في تيارها وطفت على كل شيء في حياته ، فرأى في زهير ما كانت تنزع اليه نفسه ويهفو له جنانه قد كان في الخامسة عشر من عمره ، يصعد شجرة التين في دار أبيه الواسعة ، يردد أبيات الشعر التي كان يحفظ منها ما ينوف عن الالفي بيت ، يتغنى فيها أحلامه ، ويرى خلالها دنياه وعالمه السحري الجميل ، حتى ليمضي انهار بطوله دون أن يشعر بحاجة معدته الى طعام وجسده الى راحة ، بينما أهلوه يبحثون عنه كل مكان خوفا وجزعا فهو وحيدهم الذي لم يرزقوا غيره •

فلا غرو أن أختط الابن سيرة الاب العظيم، وترسم خطاه ، واستطاع أن يحقق نوازع نفسه وأماني قلبه ، فيحاول التحليق المرة تلو المرة ، فينجح مرة ويخفق مرات ، وهو بين هذا وذاك في انتظار نمو الجناحين كي يستطيع بهما أن يقطع الاجواء ويصل الجوزاء التي طالما تراءت لعينيه الحالمتين هدفا بعيدا ومقصدا نذر له حياته وعاش عمره •

كان يهوى الموسيقى ويتمتع بصوت رخيم تحملك عذوبته الى دنيا جميلة ساحرة ، فأتقن عزف العود وتمرس الكمان فدخل بذلك أجمل عالمين ، عالم الموسيقى ودنيا الشعر ، وهما فرعان لاصل واحد •

وبدأ ينمو نحو الكتابة فكانت أولى محاولاته كتيب صغير بعنوان « الفضيلة العربية » يحكي حادثة يمر بها قيس وليلى •• وكان ذلك في سن العشرين • وبعد ذلك بعامين أصدر أول عدد من مجلة « اليقظة العربية » التي كانت تصدر كل شهر عن دار اليقظة العربية بدمشق ، فكانت « صورة الفكر المعاصر » كما أسماها ، شارك في تحريرها نخبة من أدباء العربية في مختلف أقطارها •

وفي مطلع تشرين الثاني لعام ١٩٤٨ صدر أول ديوان له بعنوان « كافر » كان خطوة جريئة في عالم الشعر التمثيلي في سورية • وفي آذار من عام ١٩٥٤ أصدر كتابه « دراسة ايليا أبو ماضي شاعر المهجر الكبير » وهو دراسة شاملة عميقة لشعر أبي ماضي في شتى مراحل حياته ، يحتوي على جميع ما نظمه الشاعر الكبير ما عدا ديوان « تذكار الماضي » الذي تفضل بدفعه الينا شخصية أدبية كبيرة ومحقق علامة ، كما تكرم أيضا باعادة تنظيم الكتاب ووضع مقدمة من جميل أدبه وروائع أسلوبه السهل الممتع • والكتاب الجديد قيد الطبع الآن، وله جميل شكرنا •

وهناك كتاب من جميل قصصه قيد الطبع ، وكذلك سنعمد الى جمع أشعاره في ديوان سوف يصدر قريبا ان شاء الله •

وفي الرابع والعشرين من شهر شباط عام ١٩٥٦ صمت النغم وتوقفت القيثارة ، وهصر القدر غصن الشباب المورق في حادث سقوط الطائرة المشؤوم بين دمشق وحلب • فبكى الزهر وناح الشجر ، وشجى البلبل ينعي شاعرا فتيا وقلما سويا لما تعجم الايام عدده ، فقضى وهو في أول الطريق يتلمس النور كي يصل الى الشمس•

قضى الشاعر الاديب زهير ميرزا ولما يبلغ الرابعة والثلاثين ، يخطو نحوها في تؤدة ومهل ، يتزود منها لرحلة الاربعين وبينهما عديد من السنين يستبقها ليصل « سن الاستقرار وبداية التأمل العميق في أمور الحياة وغرابة شؤونها » كما كان يردد • كان يهفو للاربعين بجوارحه يبغي به هدوءا واستقرارا ومنطلقا في دنيا الادب وعالم الشعر بعيدا عن متاعب الحياة وعويص شؤونها ، كان يحن للقياه وما علم أبدا أن رحلة حياته الفتية ستنتهي قبل الاربعين •

جلسنا نطل على البحر في بيروت قبيل الحادث المشؤوم ببضعة أيام ، نتحدث لاهين ، ونضحك مرحين• نستمع اليه يرسم خطوط حياته المقبلة كأأحسن ما يكون الرسم ، ويبني في الخيال أمجادا دونها كل الامجاد • وكنا حوله نستمع اليه ضاحكين تارة منصتين تارة أخرى نحس به معنا حينا ويسرح عبر الازرق اللجب أحيانا •• فنناديه ضاحكين ، ونكلمه سائلين : هل اختطفتك ربة الشعر ؟ فيضحك ونضحك غافلين عن المتربص الغادر الذي كان لسعادتنا وهناءتنا بالمرصاد ، وكان حقا علينا لو بكينا أحر البكاء ، كما قال الشاعر :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لاهل البرية أن يبلوا
تحطمنا الايام حتى كأننا زجا
ج لكن لا يعاد له سبك

# الميلاد الخالد

قصيدة في المعري

شعر : المرحوم زهير ميرزا

استعرنا فم الزمان وصحنا جل ميلاد شاعر ليس يفنى
خلد الشعر ، واستراح الى الصمت ، وما زال ناطق الثغر لسنا
ومشى بالقرون ينفخ فيها من دنى روحه ، فخبت ، وأغنى
ولو أن الزمان يحفظ عهدا لطوى دون ذكره القول قرنا[1]
رجع الدهر شعره مثلما رجع محزون القلب لوعة مضنى
وكأنا به تألم حتى صاغ من يأسه المروع فنا
فترى الدهر ، والزمان وركب الارض ثغرا ، وخالد الشعر لحنا
يتغنى به القطين ، ويروي منه ركب الظعين ، أين وأنى
حسب من طاولته أيدي الليالي أن أحال الآلام لحنا يغنى
كل جرح يصيح في مبدا الامر ، ويشدو اذا الزمان أسنا !..
وضعاف النفوس صرعى الرزايا تبتليهم فما تخلد لينا
سبرت غورنا ، اذا بالمعري تراه منشودها المتمنى
عرفت فيه قوة النفس والروح فمادت من دونه اذ تأنى
كلما أغرقت أذى ، دق حسا ومن الناس من يعيش ليفنى !!!

* * *

قبل ألف تمخض الدهر كالحوت ، وألقى للارض « يونس » أسنى
فاذا بالوليد فرحة جيل واذا الجيل فرحة ليس تفنى
وأراه بعد الحكيم « زهير » دق فكرا وغاص في العقل ذهنا
واحتوى ضمن كفه قدر الناس وأمسى يحلل الامر فطنا
فرأى ما رأى ، وعاد كئيبا رهن سجنين ما أعاداه لينا
غير أني أراه كالغائص البحر سجينا ، وأنى لغيره الدر أنى ؟
واستقرت في رأسه فكرة الخير ، بشكل للشر أميل مبنى
وتعالى في علمه وشك أمسى - فرط علم - أخا التبلبل يضنى
حمل الهم راضيا ، ثم أضحى ناقما مفرطا ، فما كان أغنى ؟!..
كلنا أبصر المآسي تترى ورأينا الادواء ثم وصفنا
ان للنصح طابعا ليس يجدي فيه عنف وان تنابل معنى
يقتل النصح لهجة وتحد وأرى اللين يسلب الوحش سنا

* * *

يا جلال القرون ! رجعت بالامس خلود النبي للشعر [2] لحنا
وأرى رجعة « المعري » أولى فخذ القول واجعل الدهر أذنا
كان جيلا ، بل كان مبدأ جيل دونه « أفلاطون » لما تمنى
ثورة نبعها النهى والتروي خبرت معدن الحياة المعنى

---

(١) اطلاق الجزء وارادة الكل ٠

(٢) المتنبي ٠

نشأت ثم نظمت ثم سيقت فاذا بالوجود يقرع شنا
ما لذاك الدوي يوم قرار غير يوم الميعاد ان صح ظنا !!

* * *

جل عقل ، اذا تقادم في الحكمة ، عن كل تافه خس شأنا
فتراه اذا تعطش للقول تناهى فكرا ، فأخطأ معنى
وهو في ذلك التناهي مصيب غير أني رأيت في العمق وهنا
كم شجاع تراه في ساحة الدهر مخيفا ، فان تناهى تجنى
وأرى غاية الحياة مماتا وأرى غاية الشجاعة جبنا !!.
ولو أنا في الارض نسعى لخير ما سبرنا أغوار أرض رعتنا
ان يكن في الوجود ثم اله ما خسرنا ؟ أو لم يكن ما ربحنا ؟
نحن نحتاج للاله كما نحتاج للماء والغذا .. ان أردنا ..
كل نفس تمر في ساعة الخوف ، فأحبب بمن يواريه عنا
يحتوينا الاظلام ليلا ، فمن يرعى بقايا حياتنا ان غفونا ؟
سمه « الله » ان يكن قوة عليا . وأقصر اذا تطاولت ذهنا !!!

* * *

قدر ، دوخ الاناسي والعقل ، وأعيا من دونه من تظنى
كم تمنى أخو الرجاجة أن يحظى بشيء من سره ، فارجحنا
كل أمس قد مات سر على الدهر . ويوم آت لأبين معنى
مثل البحر ، ليس فيه غموض وشك تبغي الغموض منه استجنا
تتوالى حوادث فهي جهر وشك تمضي اذا بها السر منا
قد حملنا منها كثيرا فلما عذبتنا لم نرضها ، فندمنا
يفزع المرء للتخلص من هم ، فان نال ما تمناه حنا
وكأني بمبدا الكون يحتار انجذابا بين التناقض جنا
كم ضئيل من الامور احتوانا وعظيم من الامور احتوينا
وكأنا بفكرنا قد شقينا وكأنا بذا الشقاء نعمنا
سفع الدهر جبهة المرء فاختل وأمسى يحتار أذنا وعينا
كل طفل في المهد يشكو من الدهر ، وهذا البريء يجأر منا !!!.

* * *

جئت تنضو عن جانبيه غموضا فاذا بالغموض يدعم ركنا
كنت في بؤرة الحياة ، فماذا كنت تبغي لقاءه الامس منا ؟
كم تألمت واحتدمت ، ولكن ويح نفسي عليك لم تلق أذنا
وكأني بك المسيح وقد حمل بؤس الورى ليصلح شأنا
أو كأني أراك خالصة الفكر ، وقد جئت غير أهلك تعنى
قد أبيت الغمام الا على الناس جميعا . وبالنقيض رغبنا
وأطرحت الجنان يوم تلقاها وحيدا ، وما لهذا دعونا
غرق الناس والوجود ونفس الخير في الشر ، فالنصيحة تفنى
ان من في طباعه بذرة الشر لادنى أن يأخذ النصح عنا
ألف عام مضى ! وتمضي ألوف وسنبقى كما عهدت وأدنى !!!
تلك منا طبيعة الخلق فانظر : كيف يستطيع أن يرى من عمينا ؟!!

دمشق ـ المرحوم زهير ميرزا

# عود النعنع

قصة بقلم : فاتح المدرس

كانت الغمامة الرقيقة قد اكتملت فوق نهر «كيليكيا»، المتسرب من أقصى الشمال السوري ، والظهيرة تسيل حرا لاغبا فوق تلال « حربة » و « دير شكين » ، ومن الجانب الغربي للنهر برزت قرية « داكرمان » كأنها عشر حجرات سوداء مبعثرة فوق تل « بركة » ، ومن دون هذه الغمامة كان الدرب من « صولاق داكرمان » الى النهر يبدو وعرا ومقشورا كأنه جلد ضب تحت مجهر .

هذا النهر الوديع ، المتواضع ، كان كعادته نائما وقد أغمض عيونه الكثيرة ، تحت غلالات من عيدان القصب وأشرطة الصفصاف الحزين ، وقد مدد جسده الطويل ، النهر ، تحت أظلالها الزرقاء المعتمة بعيدا عن عين الشمس اليقظى بلا رحمة ، متوهجة ، على كل حصاة نيرانها ، تتغلغل بين أيكات الخرنوب وأشواك الكرنج . انظر ، ان قويق الجميل يتنفس في الشمال ، كأنه نهر حي ، وعلى ضفافه ألف قطيع في مراعيه .

ففي هذه الظهيرة المخيفة ، أغمضت « عالو » الصغيرة ، عينيها الرامدتين ، تحجب وهج الشمس بكفيها الدبقتين ، تسير الى النهر مطمئنة ، من قرارة نفسها ، ورغم الاخطار الكامنة في شقوق الارض وبين الصخور السوداء ، وبما أنها ذاهبة الى النهر فقد أحضرت معها رغيفا واحدا ، فانه يكفي ، وليتها أحضرت شيئا من الحلاوة ، اذن لاكلتها . هذا ما جال بسرها الصغير ، ولجاءت معها جارتها « نازه » ، ولعل « دنده » كانت تنازلت ورافقتها ، رغما عن ثوبها الجديد ، ولكن ما الفائدة ؟..

وضربت « عالو » كفا بكف ، كما يفعل الكبار ، لانه ليس هنالك أحد ، لا حلاوة تأكلها مع رغيفها ، ولا جارتها .

وتلفتت الى الوراء ، تمسح جدران القرية البعيدة بعينيها الموجعتين ، لترى ما اذا كانت أمها وراء الجدار متمددة على الارض مريضة ، معصوبة الجبين بالمنديل . ورفعت خصلات شعرها الشاحب عن وجهها النحيل ثم استدارت وسارت صوب النهر .

وارتفع في السكون الابيض نداء بقرة وراء المرتفع الذي يحجب النهر عن عيني « عالو » ، فحثت الخطى وكانت تتحاشى السير على الحصى الذي انقلب الى جمرات تلدغ قدميها الصغيرتين المتربتين ، وقالت بسرها « سأسبح بعد قليل » ، وأردفت : « اذا لم يكن هنالك صبيان » . وهزت رأسها الاشقر ، وبلعت ريقها ، وسرها أنها ستستطيع فتح عينيها الى أوسع مدى تحت الماء وستسمع وسوسة الحصى المنزلق مع التيار في قعر النهر وسيكون لها تحت الماء قاعة خضراء ، لبعض لحظات ثم تصعد الى وجه الماء ، وتبصق .

ورفعت الصغيرة كفيها الى شعرها ومسدته ، كأنما ق خرجت لتوها من حلمها المائي الرطب ، وكانت التر الحمراء تشوي قدميها ، ليتها لبست صندل أمها ، اذ لسارت وكأنها تمشي على أرض معشبة .

وانحنت الصغيرة ، فالتقطت عودا يابسا من الذرة وجرته ، فارتفع وراءها خط طويل من الغبار ، وتوقف لحظة لترى كيف ستسوق الريح الغبار ، فكان الغبا يساقط بهدوء الى الارض ، وسرها أن تعلم أن لاري

الآن ، وان كان وجودها سيخفف وهج الحر عن رأسها وقالت : « أنا فقيرة » • ومسحت قطرات العرق عن ظهر أنفها ، ووقفت على رؤوس أصابعها لتستطلع ، هل النهر بعيد ؟ انه وراء ذلك الصف من الحور •

وتصورت كيف كانت تذهب الى النهر من قديم الزمان مع والدها « مسلم » الذي أرسله الاغا الى مخفر العسكر ، ولم يعد حتى الآن •

وبدت جبال « كمنون » الشمالية بعيدة ، بنفسجية وبعيدة • « لعله وراء تلك المرتفعات الآن » •• وأشارت بالعود الى الجبال • وتذكرت أنه قال سيحضر لها تمراً اذا عاد ـ كما سيحضر لامها الدواء •

وبينما « عالو » تحاور نفسها وهي تمضي على الدرب الى النهر البارد ، تعالى نداء بعيد ، آت من ورائها، من أعلى التلة مناديا : « عا •• وو •• » فلم تلتفت ، واكتفت بأن جلست حيث هي ، ثم التفتت نصف التفاتة وجلة ، وقلدت النداء : « عا •• وو •• » • وسرها أن أيقنت أن الصوت كان لبقرة ، وليس صوت حارس الضيعة الذي يمنع الاولاد من مغادرة الجدران السوداء ، لا لشيء الا لان « الاغا » قد أقام لنفسه بستانا بجانب النهر • وبما أنها ليست ذاهبة باتجاه البستان ، فلماذا لا تنهض وتمضي بسبيلها ؟ •

وهكذا نهضت « عالو » ومشت بهمة ، ترمق بين آن وآخر أصابع قدميها المحترقتين • وأحست أن ماء يغلي في أعماق أذنيها ، فضغطت عليهما براحتيها فتحول الهدير الى وشيش ، ثم عاد فاتضح أنه دوى تيارات النهر القريب ، يخالط حشيش أوراق الصفصاف على جانبيه ، وتذكرت لتوها تحذير أمها لها : « ستموتين اذا وقفت في عين الشمس •• عودي الي بسرعة بعد أن تعطيك زوجة الاغا حبة الكينا » •

ولكن لماذا طردتها زوجة الاغا ، ولم تعطها الدواء ؟ وكانت عيدان الحصاد تبدو وكأنها مسكوبة من زجاج أصفر ، فهو هشيم ، ولم تستطع أن تفهم لماذا منعوا عن أمها المريضة حبة الكينين ، ومر سرب من الجعران الاخضر فوق رأسها فبعثرت شمله بالعود الذي في يدها، وكادت أن تنسى مهمتها ، فهي ذاهبة الى النهر في شغل ، الدواء على شاطىء النهر كما قال الاغا : « خذي عودا من النعناع الى أمك أيتها العمياء » •

هذا ما أمرها به الاغا ••

« ولا يوجد عندنا طوقتور يوزع الكينا » •

هذا ما قاله الوكيل ساخرا ، وكان هنالك عسكري جالس على حافة عتبة باب « الاوضة » يأكل لحما فلم يطعمها ، وتمنت أن تكون ذلك الكلب الذي يكسر العظام بأسنانه • ولكن هي ذاهبة في مهمة ، « الى النهر ياعالو »؟ وضحك منها كل من كان في الاوضة عندما تعثرت بالكلب ، وخرجت باكية •

ورفعت البنت الصغيرة وجهها الى الشمس أول مرة ، بعد أن أغمضت عينيها ، لترى ما اذا كانت الشمس حقا ظالمة كالاغا أو كزوجته « فظلة » ، ودقت الصغيرة بقبضة يدها على صدرها ـ كما يفعل الكبار ـ وصاحت « ربم ••• ناقدرظالم » وأطرقت لحظة وقد جمد وجهها فشدت على صدغيها بكفيها ومشت مترنحة نحو النهر •

وارتفع الافق الشرقي كأنه جدار قد من زجاج رمادي رجراج ، وأن النهر بعيد ؟ وأن أمها مريضة ، وأن الارض حمراء كالتنور ، فهبط قلبها غما وعطشا فجلست دفعة واحدة على الارض ، وراحت تبكي معولة، ولم تلبث أن شرقت بدمعها ، فأخذت عودا من السوس ملقى بجانب الدار ومضغته ، ثم نهضت معتمدة على ركبتها ـ كما يفعل الكبار ـ ومشت ، فبرقت عيناها الزرقاوان بعد هذا البكاء ، وابتسمت بلا سبب كما بكت ، ومسحت ـ وهي تمشي ـ عينيها بكمها الايمن ، ثم بكمها الايسر ، وتسربت بقايا الدمع الى حلقها فبلله بقطرات مالحة ، وكانت « عالو » قد بلغت « قبور الكاور » وهو المكان الذي

اذا وقف الاطفال الكبار على صخوره المنبوشة شاهدوا النهر ، فتسلقت احدى الصخور ووقفت جاهدة على رؤوس أصابعها ، وحجبت بكفها اليمنى الشمس عن عينيها ، ومطت عنقها ، ولكنها لم تجد النهر .. الا أن ريحا رقيقة هبت على وجهها الملتهب ، فانحدرت وراحت تركض وتغني « كندر ، كندر كندرا » . وهي أغنية كردية قديمة يغنيها الاطفال الاكراد الجياع ، ومعناها « كوسا ، كوسا ، كوساية » وأردفت :

كندر كندر كندرا
كندر تفـا برغرا

ومعنى ذلك أن الكوساية مع البرغلاية .. الى آخر ما تبقى من الانشودة :

كندر وينا هندر كن
كندر وينا مـا ليكن

وكان النهر قد انكشف أمام عينيها ، فتوقفت عند أول شجرة زعرور ، حيث يقوم قبر ولي من أولياء الله « الاكـراد » ، يشاع أن اسـمه « ولى محمود » . أي « محمود المجنون » وقالت بسرها لولى الله :

« لماذا لا يوجد زعرور على هـذه الشجرة أيهـا الولي الميت ؟ » .

وانحدرت نحو الوادي العظيم ..

أثار النهر ظمأ « عالو » فخفق قلبها بفرح رطب ، وتصورت كيف سيكون نقـر الاسـماك لقدميها لذيـذا ومخيفا ، وفتشت عن عود غليظ لتهش به الكلاب التي تلجأ الى وحل النهر في مثل هذه الظهيرة طلبا للرطوبة وتخلصا من نهم الذباب الاحمر والقراد ، وتذكرت كلبها الاعمى الذي قتله حارس القرية في الشتاء الذي نزلت فيه من السماء « زعقة » عظيمة ، فأراد اظهار شجاعته فصوب بدوره « جفته » على كلبها المسكين .

كل هذا جرى بعد أن سافر أبوها ولم يعد ، ويقال انه مات . الا أنها لم تصدق ما يقوله الناس ، فمسلم ل يموت ، لانه طويل وشجاع ، وأنها تحبه !

وتطايرت أسراب الفـراش الاحمـر وهومت ف خفقات نزقة حول قدميها ، وفوق أعواد السلال الشائكة وكانت مياه النهر ، وقد تجمعت في بحيرات لا تحصى تبدو كعقد لؤلؤي ملقى على قطيفة خضراء مفروشة م أقصى الشمال ، من عنتاب ، الى أقصى الجنوب الى حلب كان النهر يبدو كصف من المرايا المكسرة مرصوفة بي التلال .

ولم تكون « عالو » وحدها على النهر ، فلقد سبق جماعة من النساء يغسلن ويغتسلن حول قدر يتصاعد م جوانبه الدخان فنادتها احداهن تصرخ : « هل على النه رجـال يا بنية ؟ » الا أن « عالو » اختفت وراء شـجر صفصاف ، ولم تجب ، وتعالى هدير النهر حتى أصب كهدير طاحون « دير شكين » في مسامعها ، وكلما تقدم خطوة نحو الضفة ازدادت رطوبة التربة ، ولانت تح قدميها ، وتغلغل العشب القصير الحاد بين فرجات أصاب قدميها ، ولـم تنس النعنع فـراحت تبحث عنـه بعيني الدامعتين فنادتها امرأة أخـرى : « عالو » عودي أيت العمياء الى أمك ، وأردفت أخـرى اذ تمشط شـعره ضاحكة : « ستتزوج أمـك من جاويش حسن اذا لـ تمت . »

ثم هرولت نحوها امرأة مجدورة منكوشة الشع متهدلة الثديين تقفز فوق الشوك وأمسكت بكتف البن وهزتها صارخة . « لماذا جئت الى هنا أيتهـا الشيطان الصغيرة ؟ ألا تدرين أن الكوله عميقة ؟ هل تودين أ تلحقي بأبيك مسلم ؟.. »

أرعب الصغيرة هذا القول وسرها في آن واحد وتراجعت أمام المرأة المنكوشة الشعر ، ووقفت مطرقة وقد جمدت معالم وجهها ، فتركتها المرأة ، وعادت تنظف

مشطها ، وتلغط بكلام كثير ، وصاحت بها امرأة أخرى تنشر غسيلها على الشوك :

ـ عالو ، يا بنيتي عم تفتشين ؟ ستقتلك الشمس اذا وقفت في عينها ..

فقالت عالو بصوت خفيض :

ـ أريد نعنعا ، عود نعناع لامي ، هي مريضة .

وحسبت الصغيرة أنهن قد سمعنها وسيتركنها وشأنها ، الا أن هدير النهر كان أقوى من أن يوصل غمغمتها الى سمع أحد ، ولم تلبث النسوة أن تركنها وشأنها .

فاقتربت عالو من ضفة النهر ، ومن فرجة بين القصب رأت على الضفة الشرقية جماعة من الصبيان يلعبون في الماء ، وكم ودت لو أنها شربت وعبت ماء ، ثم سبحت وسبحت الى آخر الزمان ، وألهتها ضفدعة خضراء صغيرة جاثمة على شريط قصب ، فمدت عالو يدها فقفزت الضفدعة وسقطت في الماء تاركة وراءها حلقات حلقات .. وودت لو كان معها عود ملتهب تأخذه من تحت القدر ، فتدخله في الماء ، اثر هذه الضفدعة المتوحشة التي أبت صداقتها ، اذن لكان للعود « جزيز » في الماء وأنها تحب صوت جزيز العود الملتهب اذ ينطفىء هكذا « جز .. جز » .

وسقطت أبصارها على حزمة مزهرة من عيدان النعنع قائمة على الضفة ، فنسيت الصغيرة عطشها ، كما نسيت أمنيتها في أن تسبح ، فتقدمت بحذر نحو العيدان المزهرة تجس مواطىء قدميها . وقالت تحدث نفسها :

ـ ان السمك وراء هذه العيدان كبير .. وأدركت أن الماء عميق هنا ، وأنه بدأ يطل عليها بعيون خبيثة ، وبدت الفجوة التي تفصلها عن حزمة نبات النعنع كأنها بلاطة ملساء ، فاقتربت محاذرة تدوس العشب الندي خطوة خطوة ، واختفت عالو تماما بين عيدان القصب والصفصاف ، فكثرت الضفادع الخضراء حولها ، ترمقها بعيون صفراء كبيرة مستطيلة ، كل ضفدعة بحجم الفولة المقشورة ، مقشورة وملساء ، وأمسكت بضفدعة صغيرة جدا ، وقبلتها بحنان ، وراحت تغني لها هامسة : « ورا فيره يور قشكة .. وينا فيره حيرانم » وتصورت الامهات يحملن أطفالا عراة على أيديهن . شعرهم مثل القش ، وأنهن حائرات بحب أولادهن ، كهذه الضفدعة ، وأن أفواه الضفادع عريضة كأفواه الاطفال اذ يصرخون طالبين أمهاتهم ، وأمهاتهم في الحصاد ، ونقت الضفدعة على كفها كأنها ترد « تعالى لي .. » وصمتت الضفدعة لعلها لم تحسن ترجمة الاغنية لصعوبتها . وكان نقيق الضفدعة أول تحية من هذا العالم الى عالو ، عالو البنت الصغيرة من ضيعة صولاق داكرمان التي يحكمها الاغا الشرير « حموكيا » والذي لا يعطي البنات اليتيمات دواء لامهاتهن المريضات ، وأرادت عالو أن ترد تحية الضفدعة بأحسن منها فاسلمتها الى شريط عريض من القصب ، فاستكانت عليه الضفدعة آمنة مطمئنة ، فقالت عالو هامسة: « ازتا حزدكم » ( أنا أحبك ) فتململت الضفدعة من طول زيارة عالو ، وقفزت الى الماء قفزة رائعة ، فقالت لها الصغيرة : « وهل في قلب النهر طعام كثير أيتها الضفدعة؟» وأخرجت من قعر جيبها « فرافيط » كعك قديم ولعقته ، وتمنت لو كانت ضفدعة .

وساد السكون على عالم الصغيرة ، وراعها أن تكون حقا وحيدة ، اذ الاصوات خفتت من حولها وازدحم في مسامعها الطنين من جديد ، وارتعش القصب فخفق قلبها ، وتذكرت عود النعنع الذي سيكون دواء شافيا لامها ، فانتخبت بعينيها أكثر العيدان زهرا ، وكان الماء لا يزال يرمق « عالو » بعين واحدة كبيرة ، فمدت يدها وشدت اليها العود ، فانزلقت « عالو » .

وارتفع نداء مكتوم من طيات الماء على شكل فقاعات لم تلبث ان انطفأت .. وارتفع رأس صغير ، شعره أشقر ، وضربت عالو بيدها الماء وحاولت أن تمسك بالسماء فكانت هذه المرة عالية ، عالية ولم تلبث السماء أن اختلطت بالماء ، وفي غمرة رعبها المميت نادت « آو

•• ! » ونادت أمها بأعلى صوتها ، الا أن ماء النهر لين وعميق وقاتم ، وفي لمحة عين تقصفت جميع عيدان النعناع ال •• نع •• ناع •• النع •• وحاولت أن تتشبث بها ، وكان التيار الخفي يدور بها ويقلبها ، واكتفى بأن دار بها دورتين فغيبها •

غاصت عالو كما يغوص عود ثقيل ألقي عاموديا في اناء ، فلا مست أقدامها القاع الموحلة ، ودارت في رأسها الصغير عجلة الزمن خاطفة •• فصرخت : « آنى •• » أمي ، فقالت لها أمها : « هات يدك يا عالو ، يا حبيبتي »، ونفذ بسرعة البرق أبوها مسلم خلال الغمامة الرقيقة ، وترك السماء لاصحابها ، وانحدر كالشاهين نحو عالو ، وصرخ بها ، وهزها ، بصوته الجهوري أن « تمسكي بالحشائش يا عالو •• يا صغيرتي » •

ورأت عالو وجه مسلم يقترب ، ويكبر ، واختلط بوجه أمها ، وكانت لا تزال تعصب رأسها بمنديل وراء الجدار ، وتحول قصب الشاطىء الى ألف يد منها السوداء ومنها البيضاء ، وعرفت بينها يد المرأة الطويلة ذات الوجه المجدور ، ودارت وجوه كثيرة حولها ، وملأ الظلام وجه يصرخ بها « الى النهر •• الى النهر » وشعرت أن يدا تهزها وتصرخ بها : « الى النهر أيتها البرصاء » ، وألقى « حموكيا » اليها بألف رغيف وقع على وجهها ، فهي تأكل ، الآن كثيرا •• من الماء •• وان الوجه الكبير وجه الاغا غدا كبيرا ، مكشرا عن أنيابه كوجه الكلب الذي يكسر العظام ، وقبض على صدرها ، فمزقه بأنيابه ، وأرادت أن •• الا أن الفقاعات كانت قد تكاثرت على وجه الماء ، فقالت لها أمها : « اذهبي الى حلب ، مع النهر ، وسأذهب معك » • وأمسكت بيد « مسلم » ودارت حولها ، تصرخ بها « معا •• » •

واحتواها شلال عظيم مظلم أحرق عينيها وعنقها ، وصدرها ، ومزقه ، وشعرت بأنها تغوص بسرعة لينة نحو قاع عين كبيرة ، وتذكرت عين الشمس ، وفار صدرها كالمرجل ، وأنه سينفجر • سينفج•••ر•••

وفار ماء النهروطاف شعر ، أشقر •• كانت الشمس حسبته حصادا سبقت وأحرقته ، فطفا حلقات حلقات ، ثم طفا ثوبها الاحمر المنقط بنقاط بيضاء ، حتى بدا كأن قلب النهر ينفجر حزنا وتقلب رأس عالو مع التيار والتقى وجهها بوجه السماء •• لقد كان وجه عالو جميلا •• الا أن وجه السماء كان لا يعرف العداوة •• ولا الرحمة حسب عادته •

وقال الراعي الذي انتشلها مساء من الماء انه وجد في يدها عودا من النعنع •

# من دهاة العرب

بقلم: وهيب راي الدين

لحق الجاهلية في وقت متأخر مكنه من أن يبلغ فيها طور الرجولة .

وترعرع ونشأ في قبيلة لها رصيد كبير من المكاسب الجاهلية مكنته من أن يكمل شخصيته القوية ، ويطبعها بالطابع الجاهلي الاصيل الى ما فيه من عصبية واعتداد ، وايثار الذات ، وحب الظهور ، والتفاني في نفوذ الكلمة ونباهة الذكر .

وآلت اليه زعامة قبلية كهذه بعد وفاة والده على أثر حرب نشبت بين كندة وقبيلة مراد ، وخرج يطلب ثأر أبيه ، فكلفه هذا الخروج ثلاثة آلاف بعير اشترى بها حريته حين قهر وأسر .

وظل سيدا لكندة يستلهم من ماضيها التليد العزة والمجد ، ومن طبعها العنيف الانفة والاباء ، فيوجهها حيث مواطن الكرامة ومنازل السؤدد ، ويجهد ليحافظ على مكانتها اللائقة بين القبائل وما تمتعت بـه من سيادة سياسية ، ارتفعت حتى منزلة الملوك ، ومن شهرة أدبية تأوجت في الشاعر الذائع الصيت امرىء القيس .

وأظل صاحبنا الاسلام وانتشرت دعوته في سـائر القبائل العربية ، وهرعت هذه القبائل ـ لما لم يكن بد من ذلك ـ الى النبي ( ص ) تعلن بين يديه طاعتها واعتناقها الدين الجديد . وأما هو فامتنع في بادىء الامـر ، لا لشيء الا لان الرسول من قريش ، وقريش من عدنان . فكيف به يذهب بكندة القحطانية اليمانية ، ذات الحسب العريق والتي لم تحن رأسها الى يثرب ليعلن خضوعها لآل عبد المطلب . وليعلن لنفسـه وللعرب جميعا ذلهـا واستهانتها !؟ أليس ذهابه ضعة لكندة وحطا من منزلتها ، لا بل من منزلة قحطان طرا ؟! فأين العرب العارية من المستعربة ، وأين قحطان من عدنان ، وأين كندة من قريش !؟ انه لخطب الجلل أن يذهب بوجوه بني قومه ليمثلهم بين يدي محمد بن عبد الله !

وأخيرا أصدق به الامر الواقع ، ورأى أن لا بد له من تنفيذه والا أدركه الخطر . فقدم النبي على رأس وفد يقارب السبعين شخصا وأعلن اسلام كندة ، وحتى لم يرض الا أن اصطحب معه في عودته فقيها ليعلمهم أصول الدين الجديد . ولكن لا تنس بأن عمله هـذا كان رياء ، وأن اسلامه كان سطحيا لم يتجاوز حنجرته . فقد ظل مثال الرجل الجاهلي المغرق بجاهليته ، وبما فيه مـن النعرة العصبية ، والغيرة القبلية ، والتغني بالمآثر والامجاد ، والاعتداد بالآباء والاجداد . وآية ذلك أنه لما قبض الرسول ( ص ) ، وأصبح أبو بكر خليفته منعه الزكاة ، وأبى مبايعته ، ثم ارتد وحمل قبيلته معه على الارتداد ، واعتصم بعيدا في بجير حضرموت ، فأرسل اليه أبو بكر عامله الهاجر بن أمية ، وحاصره هذا ثـم لحقه عكرمة بن أبي جهل ، وتمكن القائدان ، بعد حرب عنيفة وقتل خلق كثير ، من أسره وارساله على رأس جماعة من قومه الى أبـي بكر ، فأعلن توبته بـين يدي الخليفة ، ثم استأمنه على حياته وحرمته فأمنه أبو بكر ، وزاد في استصلاحه فزوجه بأخته أم فروة . وما تأكد من حظوته بهذه المصاهرة حتى هزته الاريحية الجاهلية فخرج الى سوق الابل في المدينة وشرع بسيفه في كل ما

يصادفه من الابل عقرا ونحرا حتى ظن به الجنون ، ثم دعا الناس على وليمة عرسه الهوجاء هذه ، وبعد ذلك دفع الاموال لاصحاب الابل .

والآن ، بعد أن أطلت عليك الحديث ، كأنني أشعر معك بهذا الالحاح لمعرفة هذا الرجل الكندي ، فهو الاشعث بن قيس المكنى بأبي محمد ، من ولد الرائش بن الحارث بن معاوية بن كندة . واسم الاشعث لقب له لشعث كان في شعر رأسه ، وأما اسمه الحقيقي فهو موضع خلاف بين الرواة ، وترجح الاكثرية منهم بأنه معد يكرب .

هذا هو الاشعث بن قيس ذو الحياة المخضرمة التي عاش شطرها الاول في الجاهلية ، وشطرها الثاني في الاسلام . وكنت قد علمت أنه قد أكره على الدخول بالاسلام لما رأى أن لا بد من الدخول به ، بعد أن تسابقت القبائل بايفادها على النبي تعلن له اسلامها وتعترف بنبوته وطاعته . وظل كما قدمت ضعيف الايمان رقيق الاسلام ، يتأسى عن جاهليته المفعمة التائهة في كل عمل سواء كان خيرا أم شرا ، ينال منه جاها دنيويا أو عزا قبليا ، ولم يخف أمر الاشعث هذا على أبي بكر ، فكان كثيرا ما يلوم نفسه على عفوه عنه ، عندما قدمه أسيرا تائبا . فقال لعبد الرحمن بن عوف قبل أن يفارق الحياة ، وينتقل لجوار ربه وصاحبه : « وددت أني يوم أتيت بالاشعث بن قيس أسيرا ضربت عنقه ، فانه يخيل الي أنه لا يرى شرا الا أعان عليه » .

وتظهر لنا جاهلية الاشعث واضحة ، لما كان يتفيهق به من ظهور الشخصية وشموخ الانف ، وما الى ذلك من الصفات التي تتنافى مع مبادىء الاسلام في المساواة والعدالة . فدخل مرة على شريح القاضي . وكان هذا في مجلس حكومته ، فاستقبله بحفاوة وترحيب بالغين ثم أجلسه معه . وفي أثناء ذلك دخل رجل وتظلم لشريح منه . فالتفت شريح نحوه وقال له : قم فاجلس مجلس الخصم ، وكلم صاحبك . فأجابه بل أكلمه في مجلسي . فقال له : لتقومن أو لآمرن من يقيمك . فقال : لشد ما ارتفعت ؟!

قال شريح : فهل رأيت ذلك ضرك ؟ فقال بتباطؤ : لا . فقال شريح : فأراك نعمة الله على غيرك وتجهلها على نفسك !

ثم نرى أن عمر بن الخطاب يزجره بل يضربه برأسه على صدره عندما أبى أن يأكل طعاما غير لين ولا ناضج . كما نرى أن سنه المتقدمة وشيخوخته المتهالكة لم تمنعاه من طلب يد زينب بنت علي بن أبي طالب زوجا له ، وكانت فتاة تدرج ، حبا في الوجاهة والرفعة . ولكن عليا زجره وقال له : « أغرب بفيك الكثكث ، ولك الاثلب ! أغرب ابن أبي قحافة حين زوجك أم فروة ؛ انها لم تكن من الفواطم ولا العواقل من سليم [1] » .

وبعد هذا فنحن نرى في كتب الفتوح مشاركة الاشعث الفعالة في فتح الشام وفتح فارس على السواء ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا بأنه كان يرجو من وراء ذلك النصب وحسن الاحدوثة أكثر مما كان يرجو من الثواب أو الجهاد في سبيل الله . وخمل الاشعث في أيام عمر بن الخطاب الاخيرة الى أن تولى عثمان بن عفان الخلافة ، فانبسطت نفسه بالاطمئنان ، وتفتحت أساريره بالرضا لما ناله من لين عثمان وتسامحه وزيادة عطائه ، كما استعمله على أذربيجان وترك له خراجها فاستقر الاشعث فيها حتى قيام الفتنة وقتل عثمان .

ولما أصبح علي بن أبي طالب خليفة اثر ذلك كما نعلم ، كتب اليه علي كتابا بعد موقعة الجمل يطلب فيه منه البيعة بعد أن تقربه وأطراه بالمقدمة ، ثم أعلمه

---

(١) العواقل من سليم ثلاث : عاتكة بنت مرة بن هلال ولدت هاشما وعبد شمس ونوفلا ، وعاتكة بنت الارقص بن هلال ولدت وهب بن عبد مناف بن زهرة وعاتكة بنت هلال بن فالج .

بنكوث طلحة والزبير بعد أن بايعاه ، وما آل اليهما من أمر ، وشرح له أسباب الجمل وخطته النبيلة التي تبعها بعد انتصاره مع المنكسرين ، كاعطاء الامان لكل من أغلق عليه بابه وألقى سلاحه ، ومنع سلب القتلى والتجهيز على الجرحى • وأخيرا أشعره بأن العمل الذي ينهض به ما هو الا أمانة بعنقه حتى يؤديه اليه •

ولما بلغ الاشعث هذا الكتاب رأى أن لا بد له من البيعة ، ولا حول له بغيرها ، فقام وأعلن أمر علي في مجلسه على الناس • قال : « أيها الناس ، ان عثمان بن عفان ولاني أذربيجان ، فهلك وقد بقيت في يدي ، وقد بايع الناس عليا ، وطاعتنا له واجبة ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما كان وهو المأمون على ما غاب عن ذلك المجلس » • ثم جلس •

ورغم هذا الكتاب ، فعلي بن أبي طالب لم يركن للاشعث ، لما عرف ما ينطوي عليه الرجل من جاهلية عميقة واسلامية رقيقة • فهو بعد أن أمن ناحيته وأطمأن من هدوئه عزله من ولايته ، واستقدمه اليه بكتاب شديد اللهجة ، قال له فيه :

« انما غرك من نفسك املاء الله لك • فما زلت تأكل رزقه ، وتستمتع بنعمه ، وتذهب طيباتك في أيام حياتك • فأقبل واحمل ما قبلك من الفيء ولا تجعل على نفسك سبيلا » • ونحن من قراءة هذا الكتاب ، نستطيع أن نضيف الى ما قدمناه من أسباب العزل سلوك الاشعث وبذره وتلاعبه بأموال المسلمين،وما الى ذلك مما يتعارض مع رغبات أمير المؤمنين الدينية •

لكن ما حل الاشعث في الكوفة الا وسرعان ما استطاع أن يصبح زعيم اليمانية فيها من أصحاب علي • وهنا أدرك علي خطورته ، فعمد الى دمل جرحه ، واستصلاح ذات شأنه بزيارته واستزارته وتعازيه بمن يخطف له الموت من أولاد ، الى أن هم بالذهاب لقتال معاوية وأهل الشام فاستصحبه معه •

وعسى ما يكون من استصلاح علي للاشعث ، فانه ظل كما عرف مداهنا بايمانه ، متراخيا بدينه ، محبا لدنياه بأوسع معاني هذه الكلمة وأدقها ، لا ينام على وتر ولا ينسى ثأرا • لهذا فهو لم يغفر لعلي تلك الاهانات التي أصابته منه ، بل أخفاها في نفسه ليركب رأسه في حوادث صفين ، ويستعمل كل ما في هذا الرأس من مكر ودهاء ، فيحقق صبوته ، ويلعب دوره الفعال الذي حملني لان أضع عنوان هذا الحديث الذي قرأته •

لقد ذهب الاشعث بن قيس مع علي لحرب صفين، وهو مدخول السريرة ، عاقد النية على المكر ، موطىء النفس على عدم الاخلاص • وبدأت الحرب ، وطالت أيامها مدة ، ثم توقفت في شهر المحرم واستؤنفت بعده ، ثم توقفت في الهدنة التي طلبها علي لدفن قتلى الفريقين • وكان الناس أثناء هذه الحرب الطويلة الفاترة المملولة ، يلتقون ويختلطون من كلا الطرفين بالسلم ، فيتناجون ويتسامرون ، كما يلتقون ويختلطون في القتال ، فيتناوشون ويصطرعون • ولربما من كان منهم يدبر المؤامرات أثناء هذه الاجتماعات السلمية • وهنا أخص بالذكر الاشعث، الذي أصبح بهذه الحرب ماكر أهل العراق الاول ، وداهيتهم الاكبر • فكان له الاصبع الطويل في أمر رفع المصاحف وطلب التحكيم • هذا الامر الخطير العظيم في تاريخنا الذي ما زالت آثاره باقية الى اليوم ، وسوف تبقى الى ما يشاء الله • فمن المحتمل أنه اجتمع بماكر الشام وداهيتها عمر بن العاص ، وبيتا الامر لصالح معاوية ، وهو : أن يقتتل الناس ، فاذا ظهرت جيوش معاوية استمر القتال ، واذا ظهرت جيوش علي رفعت المصاحف من قبل أهل الشام ، ودعي القوم للتحكيم ، وذلك اقتداء بما فعله علي في حرب الجمل من رفع المصاحف ، والدعوة لما في كتاب الله • ولا يبعد بأن الاشعث طمأن عمرا بأن الفرقة ستحل بأصحاب علي بهذا الامر• وعلى كل حصل كما ما بيتاه من الامر ، فرفعت المصاحف ودعي للتحكيم كما تعلم • وكان أول من وافق عليه من

أصحاب علي الاشعث ، كما كان أشد الناس دعاء لقبوله. واستطاع مع من أطاعه أن يرغموا عليا على وقف القتال .

وهكذا برز الاشعث بين القوم ، وراجت كلمته بين اليمانية خاصة ، الامر الذي دعا عليا لان يرسله سفيرا الى معاوية للتفاوض بعد كف الحرب . وذهب الاشعث بغارته الى معاوية ، واتفق معه على أن يقدم الطرفان رجلين : رجل من قبل علي ، ورجل من قبل معاوية ، ويحكمان بما في كتاب الله . وأبلغ الاشعث عليا ذلك ، وقام بنشر الخبر بين الناس والتحريض الى قبوله، عندئذ انصاع علي لرأي الكثرة من أصحابه .

وبعد ذلك قام الاشعث بتنفيذ لعبته التي اتخذ العصبية وسيلة لها ، وهي اختيار أبي موسى الاشعري اليماني حكما من قبل علي . وبهذا استطاع أن يجعل القبائل اليمانية كلها بصفه ، ولا نرضى حكما عنها الا أبا موسى الاشعري الذي اعتزل الخصومة ، ونجا بدينه الى الحجاز . وأما علي فقد استكره على هذا الامر ، كما استكره على كف القتال من قبل ، لان أبا موسى كان قد خذله بحرب الجمل فعزله عن ولايته بالكوفة . وقال للاشعث وجماعته قد عصيتموني في أول الامر ، فلا تعصوني الآن .

ومهما يكن من شيء فقد استقام للاشعث ما أراد فحكم أبا موسى قريبه وكتبت صحيفة العهد بقبول التحكيم من الفريقين . وكان لا يسعه بتعبيره عن فرحه بهذا الظفر ، الا بقراءة هذه الصحيفة التي حفظها لنا البلاذري في تاريخه ، على الناس والجند ، وكان اذا جهد من القراءة كلف غيره من يقوم بها .

وسأكتفي بهذا القدر من حديثي هذا ، وأعتقد بأنني قد أعطيتك فيه فكرة عن هذا الداهية الفاره ، وما أورثه بفرهه من انقسام وشقاق في صفوف الامة ، قد كنت تظن بأنها من عمل أشخاص غيره .

هذا وكدت أنسى أن أقول لك بأن الاشعث قد توفي في سنة ٤٠ هـ .

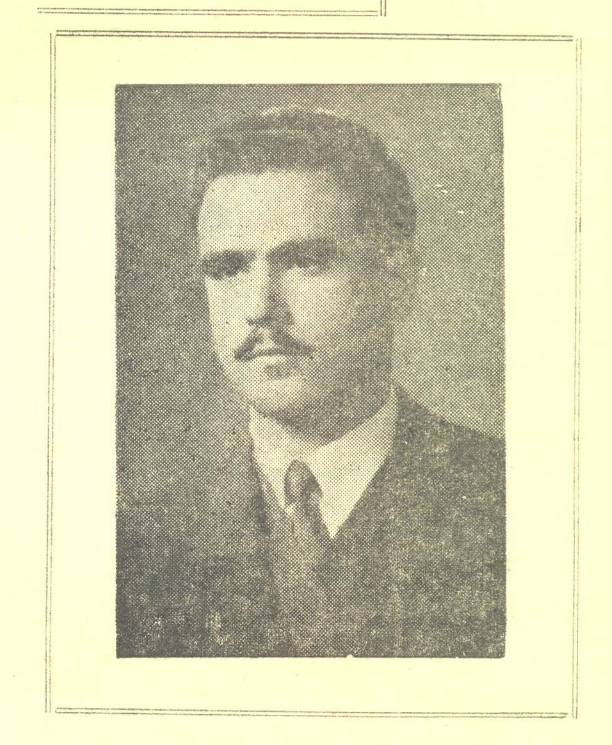
وهيب سراي الدين

# أعمدة اللانهاية .. !

قصة بقلم : يوسف الحاج

« ان الكتابة أمر رائع جدا . انها تمكنك من أن تجعل أناسا يقفون على أقدامهم ، ويلقون على الارض ظلالا طويلة ... »

– وليم فوكنر –



أعضاء مبتورة .. دماء .. طوفان قطراني .. فحيح أفاع سود .. صيحات مرعبة تصدر من القعر .. معركة غامضة .. أحجار تصيح .. هياكل عظمية تتحرك تحمل لافتات سوداء . نيران تتأجج في البعيد .. دخان أبيض يتلوى في الفراغ .. يئن ويتلاشى .. عيون لها لون الماء الآسن .. مستنقعات تعبرها جنازات من الهياكل البيضاء .. دب ضخم يبتلع حمامة مكسورة الجناح .. أصوات أبواق نحاسية تتناوس في الفضاء .. رعب .. أشباح مذعورة تركض في شتى الاتجاهات .. انسان بلا رأس يلقي مطرقته بكبرياء وحشية بعد أن انتهى من صلب جثة سوداء .. أصوات تنادي : يا الهي انزل من عليائك .. ودوى طلق ناري واخترق صداه أذنا نصف واعية ..

استفاق من حلمه وهو يلهث من شدة الكابوس . نظر الى زجاجة الويسكي الفارغة . تأمل الرصيف الايمن المحاذي للجسر الهرم .. كان فارغا من المارة . رنا الى صفحة الماء الزئبقية وحدق بمئات النجوم المتخدرة السابحة في الماء .. داعبت نسمة رطبة خصلات شعره ، ورفع يدا واهنة ومسح سيل العرق عن جبينه الاصفر .. كان يعاني من استغلال المدينة للانسان ، يهصره الشر ويفجعه التلوث . لم يكن يعلم ماذا يريد بالضبط .. المدينة تنام وراء ظهره ، والفلاة تفتح ذراعيها لاستقباله في جوف الليل الهادىء العابق بشذا زهر العسل .. كان متعبا وليس باستطاعته تحديد مكانه في هذا العالم المتداعي .. هو نقطة ساكنة تبدأ منها الدوامة .. وتحت وطأة كابوسه العنيف رفع الزجاجة الفارغة وألقاها في النهر ، ثم سحب لفافة زرعها بين شفتيه وأشعل الثقاب .. تساءل في قرارة نفسه : « لماذا يحب بعض الناس منظر النار ؟ هل يمتون للبشرية بصلة ؟ هل هم أبناء الله ؟ لماذا أكره منظر النار وأخاف من عود ثقاب يلتهب .. ؟ »

راح يعب من لفافته أنفاسا طويلة .. ينصت الى النهر وهو ينشد مرثية طويلة كالابدية .. ! النهر

ينساب ببطء وكل ذرة من مياهه تحمل الخصب الى التربة السمراء العطشى . طرح سؤاله في الفضاء : « هل انهزمت كليا ؟ أم أن رفضي هو بداية الانتصار على الضعف ..؟» وغمره شعور مأسوي ، وأحس بنصل حاد يغرز في ظهره .. وطارت روحه تهوم في سماء الجلجلة السوداء ..!!

* * *

استيقظ في صباح هذا اليوم وهو يشعر بأنه قريب جدا من الشمس .. وبينما كان يرتب حوائجه استعدادا للسفر وانهاء الزيارة ، دخلت الغرفة وسألته : هل أنت مصمم على السفر ؟ قال : بلى . فتفرست في وجهه المكدود وقالت : أريد أن أصحبك الى المحطة . فأجابها : كما تشائين . سألته : أي فستان تود أن أرتدي لك في هذه المناسبة ؟ فأجابها : أي فستان جميل تحبينه . ففتحت خزانة ملابسها وأنزلت فستانا أسود اللون أنيقا وخرجت من الغرفة بعد أن تركته يعاني دوارا عنيفا .. كان منذ لحظات قد توقف عن ترتيب ملابسه . وعاد الى هدوئه المفتعل .. اقتحمت الغرفة في اللحظة التي كان فيها يغلق حقيبته . تعانقت نظراتهما في شبه عتاب ناعم وابتسم كل منهما نصف ابتسامة مطفأة ، ثم خرج الى الشارع ونادى حمالا صغيرا ..

كانا يسيران على درب المحطة وقد أمسكت يده بيدها وفي ضميرهما تتأجج كبرياء جريح في دوامة من الصمت الراعف .. وفجأة بدد الصمت وسألها : متى ستلحقين بي ؟ فهمست في أذنه : في مطلع الشهر القادم بكل تأكيد . كان صوتها مفعما بالبراءة رغم أنوثتها الصارخة .. كانت الشمس تمنح الهواء شيئا من الدفء ..!

كانت أحلام وأخيلة ماردية تنطلق كالشهب البيضاء من مخيلته وتطير في جو من الحدس المريض ، وتحط أخيرا على أعمدة اللانهاية ..!؟

وصلا الى المحطة . كان الخط الحديدي الاسمر فارغا ينتظر قطاره المألوف . وقفا على الرصيف تحت شجرة أكاسيا مزغفة ، وراح كل منهما يفكر في اتجاه خاص به .. صفر القطار في بوابة المحطة .. تأهب للرحيل .. وتبلورت دمعات لؤلؤية في عينين خضراوين تتشبثان بالزمن .. قذف الحقيبة الجلدية ووضع رجله على عتبة المقصورة .. أخذ يدها يودعها بصوت أبح .. قال لها : اصعدي . فهمت بالصعود ، لكنها توقفت وقالت له : « ليت حوائجي معي اذا لذهبت معك وليكن ما يكون » .. ومشى القطار بعد أن أطلق صفرات حزينة.. كانت تمشي بجانب القطار .. كانت تركض .. كانت تلهث وهي متشبثة بيده السابحة بالعرق .. كانت حمامة سوداء تحاول أن تطير نحو منابع الضياء لتغسل سوادها .. حركة واحدة وتصبح في الداخل .. في صميم القضية .. وأسرع القطار .. انزلقت تلك اليد الناعمة من تلك اليد الكبيرة . بدأت أعمدة اللانهاية تقذف خارج النافذة .. كانت تلوح له بشالها الكرزي .. كانت الدنيا « ككرة في الفضاء آخذة في البرودة .. »!

أخذ مكانه . كان « الماضي والحاضر يسيلان مزيجا في ذهنه » .. كان يبدو : « حالما نائيا شاحبا كوجه غير حليق لرجل يفيق من المخدر ..!» سحب لفافة وأشعلها، وراح يحمل دخانها الابيض المنفوث بغضب كل متاعبه وأحزانه ورفضه .. وتذكر أن يومه هذا هو يوم الجمعة العظيمة ..!؟

* * *

البحر يقترب تارة وينأى تارة أخرى .. أما الاعمدة فقد لازمته على طول الطريق .. القطار يتوقف قليلا ثم يتابع سيره مخلفا الاسيجة المزهرة وراءه .. لم يشعر بحاجة للتحدث الى أي انسان .. كان أحد المسافرين الاشد انغلاقا . لم يتطلع الى أي وجه من تلك الوجوه التي كانت تلتهم تقاطيع وجهه ، وتحاول كسر زجاج نظارتيه لترى تلك العيون الغامضة التي ربما تفصح قليلا عن هوية ومزاج هذا المسافر الغريب .. كان يحترق ببطء داخل صمته الاخرس .. وامتلأت مواطىء قدميه بأعقاب اللفافات .. توقف القطار ، وهو لما يزل

مسترسلا في تأملاته ومحاوراته . لم يصح الا على صوت المفتش الجمركي وهو يسأله : أهـذه الحقيبة لـك ؟ أرجوك أن تفتحها .. شعور من الاشمئزاز كان يعزيه وهو يفتح الحقيبة .. وسمع صوت المفتش يقول له : اغلقها . يكفي ..!

تابع القطار سفرته مبتلعا المحطات الصغيرة ، يقترب شيئا فشيئا من المدينة المقصودة .. وحلا له أن يتصفح وجوه المسافرين .. وفجأة صدم بوجود وجـه حبيب يجلس قبالته وصعق للمفاجأة ، وأحس بأنه يقتلع من من جذوره .. من جذور تفكيره وانسيابه ، وأن جبلا من الثلج يذوب في أعماقه .. كانت تتطلع اليه بحنان زائد ملء عينيها رجـاء حار وعلى خديها يزغف ألف أمل محال ..!

قال في نفســه : « يا الهي هل استطيع أن أحدثها بعد هذا الانقطاع الطويل ؟ متى صعدت الى المقصورة ؟ أين كانت ؟ لماذا اختار لها القدر هذا المكان بالذات في هذا الزمن ؟ ما هذه المصادفة المرة ؟ » . وأخذ يجرض بريقه .. كانت تبتسم وقد سمرت نظراتها على صليب هيكله المتعب .. فكر مليا : « لماذا أنحط الى هذه الدرجة كانسان ؟ يكفيها ما عانت من صلب في المجتمع .. يكفيها هذا العذاب الذي امتد خمس سنوات . يا الهي لماذا لا أستطيع أن أكلمها ، أن أشد على يدها ببراءتنا الاولى ؟ لماذا لا أستطيع أن أنتصر على غضبي وحقدي ؟ هل هي التي زرعت هذا الحقد في صدري الابيض ؟ لا . انه المجتمع الذي صلبني وصلبها على مفترق الطرق .. انه الدس الرخيص .. انه الزمن الذي هد حصوننا العالية قبل أن نشعر بالسـعادة الكاملة وغبطـة الانتصار .. » وانصهر ككتلة من الفولاذ في أتون من المشاعر المتضاربة، لكنـه بقي فـولاذا أصم لا تحركه الابتسامات الناعمة الراجية ولا الرجاء المتفجر من الوجه البريء .. وود من أعماقه لـو يقذف نفسـه من النافـذة ليتخلص من معاناته .. وهزه صوت عنيف : « انـك مهزوم .. لا تحـاول الهرب .. ستجر وراءك أذيال الهزيمة أنى سرت .. » كان وجهه يحتقن بالدم الازرق .. !

توقف القطار في المحطة الاخيرة . أخذت طريقها قبله وهبطت من المقصورة ووقفت على الرصيف تنتظره .. نزل وفي يده حقيبته . كـان يرشـح عرقا وغضبا وندما .. وتوقف في منتصف الطريق الى البوابة .. لم يعرف ماذا كان عليه أن يفعل .. وقال في نفسه « هل أعتذر لها ؟ لا . لا . لقد ولدت مهزوما » .

فاءته البوابة كشبح آدم المطـرود من الجنــة .. نادى حوذيا وأمره بنزق أن يتجه به الى حيه .. كانت تقف على الرصيف القطراني الاسود ، حزينة متشتتة والدموع تنثال من عينيها البريئتين ، ثم خرجت مـن بوابة المحطـة في اللحظة التي تحركت مركبتـه باتجاه المدينة .. حوافر الجياد تثير التراب عواصف صغيرة .. كانت تفكر بالركض وراءه لتثنيه عن عناده البغليالمريض وتحتل مكانها بقربه ، وتنتصر عليه فينتصران معا على المدينة الصالبة .. لكن قدميها كانتا مشلولتين تماما .. وتسمرت في مكانها لا تود مغادرته .. لقد كانت انسانة وديعة ضائعة .. ولعنت ألف مرة هذه المصادفة التي أغرقتها في بحر هائج من الكآبة ..

* * *

دخل البيت وألقى التحية على أمه واخوته وصوته ينضح مرارة وخيبة ، ثم هرع الى غرفته الخاصةوأخرج صندوقا صغيرا وشرع يخرج الرسائل التي تطفح بالمودة النقية والحب الطفل .. احتضن الرسائل بعينيه وصدره ويديه وراح يبكي كطفل فقد أبويه في مدينة غريبة ..

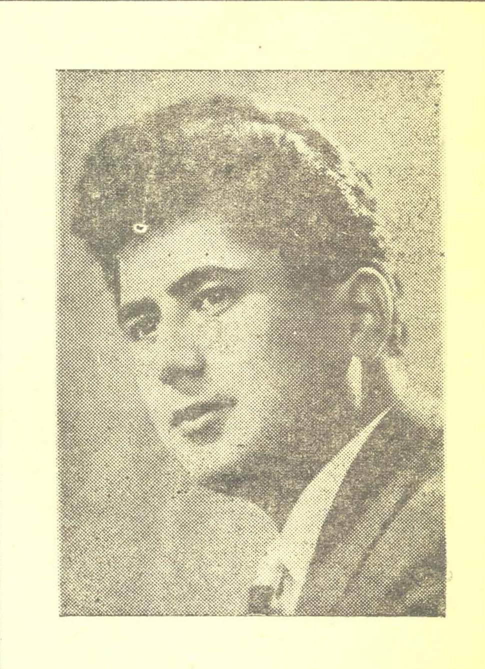
وفي المساء تلقفته الحانة بحنان .. شرب وحيدا عدة كؤوس .. ولـما هبط الليل الكبير اصطحب معه زجاجة كبيرة من الويسكي ، وترك المدينة وراءه .. لقد أضحى يكره المدينة كرها أعمى ..!! .

حمص ـ يوسف الحاج

# جيل الذبيحة

شعر : كمال أبو ديب

الخيل الكئيبات – بلا فرسانها –
تجهش :
– أين الموكب الفارس ،
قامات الشباب السمر ،
والجيل الذي نز على السرج دماه
– أينه ؟!..
والخيل تنهد ، تشم التربة العاقر
تقعي حانيات الرأس ،
تستبني حوافي الحفر السوداء ،
أحداقا مريرات ،
تعلقن بأشباح الصخور السود ،
أصنام البقايا
من سني الرعب والامساخ ،
شكوا ، مسخوا سود صخور
سحبة ممطوطة الحزن
عنين ساحب ،
والريح في تنميلها تغذوه ،
حزنا ، لوعة ، تمضي ولا تمضي ،
وتبكي وخز نار ،
ترتمي ، تغزو مداه
عمرها الموصود للغربان ، تهوي ،
حقدها يفري ،
تشك المنقر المجنون في الاحداق ،
تنشك على الخيل الكئيبات ،
تشق الاعين المحمومة الدمع ،
وترتد زعيقا مرعبا ،
ترتد ، تحتز العيون ،



وغدا نطوي مع الريح ،
وننحل رفات تستبيها
الظلمة الوحشية الاحداق أعراق الحياة
ويسف الموت أجسادا
تنوء العمر بالاثقال في رعب المتاه
وغدا يجرشنا الرعب ،
وتزرق جلود الصفر ،
يجتاح خلايانا صقيع السم ،
ترتج على المقبرة السوداء
أقدام الخنازير ، تدق الحافر
النابش أشلاء السبايا الصفر
من جيل المتاه
وغدا تصهل فوق الرمم الدودية

الكبد المنهوش ، تفريه .
وتستسقي دمـاه .
وغـدا نرصد أصناما ،
مسوخا شوهتها بطشة التنين ،
مستها يـدا ( بهزاد ) (*) ،
صرعى سيد الجان ، الالـه الساحر
التعويذ ، يلقي مبخر النار
على الطيب ، يسجي بعض آياتـه ،
ينحم ، يحل الجن في روحه ،
تغزو ربـة الجن رؤاه
وتشد الجيل قيعان وآبـار
يفح المـوت فيهـا ،
كومت مـلء القعور السود
عمرها همهمة ، ريح أنـين
في عمق مراسيها حنوط المومياء
يهزج الموتى ، يغنون مراثينا ،
وتهرينا صدى أهزوجة تبكي علينا ،
زعقة تصطك في تكشيرة الموتى
يفحون :
« أحبانا .. أيا جيل خطـايا
نحن ورثناه اتنان خلايانا ،
تعالوا ، آه يا جيل أحبانا ،
تعـالوا ،..
آه .. مشدودون أنتم لاعاميق ذنانـا ،
بقبـور العـالم السفلي ،
مشـدودون بالسـرة ،
حبل السرة المشدود في سرتنا وسرتكم ،
آه يا المشـدود يا جيـل أحبانـا الينـا .
نحن مشدودون نحو القاع بالسرة ،
حبل السرة المشدود في سرتهم وسرتنا .
آه يا المشدود يا جيل أحبانا .
وأيدينـا تشد الحبل كي تهووا
الـى القيعان ،

يا جيل أحبانا ، تعـالوا .
نحن .. أنتم .. نحن مشدودون للسرة .
يا جيل أحبانا
ولا تقسوا على أجـداثنا ،
لا تجرحوا الصمت ، تعالوا
تمتموا أدعية الكهنوت
في عالمنا السفلي ،
غبوا من بخور العالم السفلي ،
كي يمنحكم رب دنانـا
قوة الشد ، تشدون حبال السرو
الحبل الذي شد الى سرتكم - سرتهم
أجيال أحفاد مواتى العالم السفلي
يا جيل أحبانا تعالوا
أنتم بعض خلايانـا ،
ومن نتن ركود المصل في أعراقنا
أعراقكم ، من نتن أعراق خلايانا
أيا جيل أحبانا ، تعالوا
هـا فم الهوة مفغورة
وأيدينـا تشد الحبل ..
آواه .. اقفزوا .. نطوا .
أيا جيل أحبانـا ،
ولا تقسوا على أجداثنا ،
لا تجرحوا صمت المواتى
مـلء قيعان قعور
العـالم السفلي في أرض الالـــه .

* * *

وغـدا .. يولد من أصلابنا ،
نسل السبايـا ، نطفا سودا ،
تلف النسل تنحل بأعراقـه ،
مصلا ، نحن ورثناه ، ورثناه
متنا في خلايانا ، استحلنا معبرا ،
أقنية تنضح ، ما يلقفها الجيل
الـذي ورث بؤسـا ، نطفا سـودا ،

خلايـا عنكبوت ، لفت النسل .
وشددتـه الى الارحـام بالسرة ،
شددتـه كثيبا ، هرمـا ،
حط على المهد ثقيلا ،
حاملا تاريخـه المرسوم
ماضيه ، ثنايـا غده ، عبء المتاه
حاملا ندبته ، جـدب خلايـاه ،
ارتجاف الغول في أعصابه ،
شوق حناياه الى صدر حنون
عامر الدفء ،
وحضن مريمي الحب ، يمتاح سماره !.
ولله الـروح ،
يغلـي جسد التربة ارهاصا يحضب
مدنفا يركع ، يستجدي حنان الارض ،
أن تمنحه ، أنثـى ،
يحلي جسمها ختم البكاره
وغـدا ، يولد من انتاننا ،
نسل السبايا ، حجرت أحداقـه ،
أحداقـه ميراث « ميدوز » ،
خلاياه ، بقايا نسل « أيوب » ،
الذي مات على استسلامه في الدود ،
لم يرتج في عينيه ومضى الرفض ،
ما ثار على الديدان نبض في دمـاه .
وسيمضي خلف آثـار خطانـا النسل ،
يمضي عاري الاعراق ،
مصفر الخطى ، يصرعـه رعب اليقـين ،
أنه لن تغلق الارض ،
ولن تنشق عن « تمـوز » أرحـام
تـراب العـالم السفلي ،
لـن يولد للعذراء طفل في مغـاره .
وستكويه يـدا « بهـزاد » ، رصـدا
ومسوخـا ، عمرهـا همهمة ..
ريـح أنين ، سحبة محطوطة الحزن ،
عنين ساحب ، والريح في تنميلها
تغـذوه ، حـزنا ، لوعـة ،
تمضي ولا تمضي ، وتعوي
وخـز نـار ، ترتمي ،
تنضح في أنساغـه الموتى
عفونـات المرارة

* * *

ثـم مـاذا ؟!..
بعـد أن صنمت الاجيال ، مسحا
ومبورا ، جدرت أرض المسوخ ؟!..
ثـم مـاذا ؟!..
يا بوار الرحم الميتة ،
يا أصلابنا العفنة ،
في أعماقهـا ينحل سيل العفن ،
يستشري ، يسيخ ..؟!..
ثـم مـاذا ؟!..
.. كانت الصرعـة تقعي
فوق أحـداق صبايا ( قادش ) ،
والعقف الحمراء تنشد
بارهاف النهود الدامية
وصبايا ( قادش ) علقن بالسقف
بحلمات النهود الدامية
وصبايـا ( قادش ) يسفحن دفء الـدم
في حرقـة أبكار سبين الخصب ،
وامتارت يـدا ( بهزاد )
اخصاب كنوز الحس في أجسادهن ،
افتض ( بهزاد ) طراوات البكاره
وكهوف الصفر في ( قادش ) تكتظ ،
بفح الرعب والحمى ، ومرضى
مسها رعب غـد الامساخ
أختنها كوابيس بخور السحر ،
والرعب ، وجل الجن في جو المغاره
ثـم أعماهـا الدوار ،

انحم في القيعان غـاز ،
حبل الكهف بتهويم خرافي ،
وحمت في عيون الصفر أشباح ،
وسحت رهبة النار على الاعين ،
غـار الضوء ، وانساح ذهول
فوق أبصار الحيارى الصفر
في غيبوبة خدرت الحس ،
وغامت عبرها الرحمة .
ثـم !!
التمع المصهر ،
وانشقت بجو الكهف أستار
تعثرت خلفهـا الرؤيـا
« .. وداوود .. ومقلاع يجز الرأس ،
جوليات .
نبي فارع يمتشق الريح على الجن ،
وصـدر أسمر يخترق النار ،
وعشتار على هودجها الغاوي
حـداء يعبر الجسر ،
تلاقي الفارس المولود .
زنـد يشرع السيف ويهوي
يقـدح النار من الصخر .
« أدونيس » يشق الغيم ،
ينهد على المقبرة الخرساء .
عينان تشقان عيون الصخر
تنصبان في أحداق « ميدوز »
تحيلان أفاعي الاثـم صوانا ،
هزيم جلجل المقبرة السوداء ،
سيف يفلق الصخر ،
ويهوي بارقا ، يفتصل الرأس ،
ويفري قلب « بهزاد » ..
يفك الرصـد ،
تنخض الصخور السود ،
والغربان تجتاح ،
يحيل الصخر جيلا ماردا ،
يختال ، من جسم أدونيس خلاياه
قصف دمـه الربي ،
يسـمو .
يعتلي صهوه خيل البعث .
تعرو الخيل روح البعث .
يغلي دمهـا ،
تقفز في نيسانها ، تصهل ،
رعـدا بارقـا ،
ترتج في هدرته الارض ،
وتمضي شهبا تخترق الافق .
وتمضي خلف آثـار « أدونيس »
الى « الاولمب » نشوى مضمرات فارعه .
يحبل الاولمب بالنسل الذي
يولد جبارا ، يحز السرر الصفر
ويغريها ،
ويمضي واحدا ، حرا ،
وقـو خلف دنيا العالم السفلي
في مصهرها تمضغ أجيال المواتى الصفر ،
وانشق وقـد خلف ملء الارض
صرخات مواتاه .
نزيف السرر الصفر ،
وتقطيع أحابيل خلاصـه .
محرقا في مصهر البعث سدوما
جثث الموتى ، قصور الموميا‌ء الصفر
مزهوا بحمى الانصهار ،
فارسـا ،
نقيض أرحاما خصيبات ،
ويحيي النسل حرا واحـدا ،
خلف في عالمـه
أعمدة الملح وصحراء البوار .

صافيتا _ كما أبو ديب

(*) النشـيد السـادس من قصيـدة الرفض والصليب التي تصدر قريبا في ديوان .

# العودة

بقلم : الكاتب البلغاري ميخائيل ميخائيلوف — تعريب : هشام الحكيم

داهم المساء الشيخ العجوز ذا القامة القصيرة وهو يدخل القرية ، كان يمشي بتؤدة لعرج في ساقه ومن حين لآخر يقف لينظر حواليه .

ها هو المنحنى لم يبق الا مئة متر وأصل الى المنزل ولم يمش سوى ثلاثين خطوة حتى وقف مشدوها : أين المنزل ؟ وأين منازل الجيران ؟ لقد توارت ، ليقوم مكانها بناء شاهق أبيض يحمل فوق بابه لوحة تشير الى أن هذا البناء هو المركز الثقافي ـ ترك العجوز ما يحمل من متاع رقيق يسقط على الارض وجلس على مقعد في الحديقة . هل هذه قريته حقا ؟ ان المنازل تشبه منازل المدينة .. وأخذ بالسير متلفتا حواليه مثل غريب ودخل المطعم .

ـ مساء الخير أيها الشباب .. وهمدت الضجة بيد سحرية مساء الخير ! أجابته بعض الاصوات .

ـ ولكن أين صاحب المطعم .

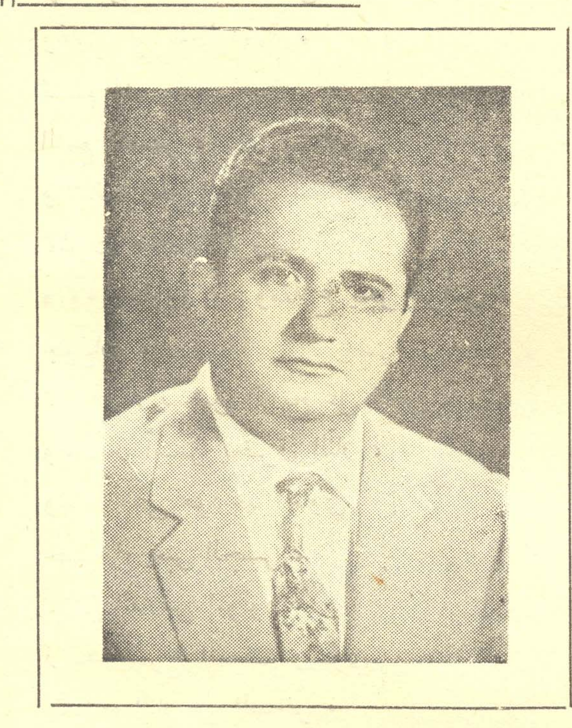
وأثار السؤال ازدياد دهشة الزبائن . وبدون أن ينتظر الجواب استطرد :

ـ أتعلمون أين تسكن عائلة ( ريتشو ميتيف ) ؟

ـ ( ريتشو ميتيف ) أجاب المجتمعون لا يوجد هذا الاسم في القرية ! وقال أحدهم أين تشتغل ؟ هل تشتغل بالمزرعة ؟ أو .. ؟ وأجاب العجوز في أي مزرعة؟

ـ ألا تعلم أي مزرعة ؟! المزرعة التعاونية للبيع لا شك بأنك هابط من أحد الكواكب .. حتى تسأل هذه الاسئلة الغير المألوفة .

ـ كلا .. وانما اتكلم عن (ريتشوميتيف بوبينيف) لقد ذهب الى الخارج منذ ثلاثين عاما ! أين هي عائلته



الآن ؟ أين أولاده وامرأته ؟

فانبرى فلاح عجوز ليقول متعجبا :

آه .. ! لعلها تكون ستوينزا امرأة ريتشو الايراني فهي هنا .. وأولاده كبروا وأنهوا دراستهم ويسكنون في المدينة .

أما سوينزا فلا تزال تنتظر عودة زوجها .. وقد رفضت الزواج .. ولكن من يعلم أين ريتشو الآن ؟ أخذ الغريب يرقص ويصيح .

أنا هو ريتشو يا أعزائي .. هل من الممكن اني لا أعرف أحدا وان أحدا لا يعرفني .

خيم صمت على المطعم وفجأة أخذ الجالسون يقفزون عن مقاعدهم والتفوا حول القادم الجديد .

وسأله أول مصافح أين كان وماذا كان يفعل وهل ربح شيئا .. لقد انتشر خبر مجيء ريتشو في القرية انتشار النار بالهشيم . وأخذ قطيع من الاطفال يتسابقون بكل قوتهم نحو منزل سوينزا امرأة ريتشو وكل يحلم بالفوز بأولوية اخبارها بعودة زوجها .

يا أمي سوينزا صرخ الواحد تلو الآخر لقد عاد الاب ريتشو من ايران .

لم تصدق الام سوينزا تلك الامرأة العجوز اذنها ولم تستطع الكلام أو البكاء وبعد برهة قفزت برشاقة كأنما الشباب عاد اليها وركضت خلف الاطفال نحو المطعم .

في خلال السنوات الاخيرة تغيرت معالم قرية كونستينينزا بما قدم لها من مساعدات . فقد عمر الفلاحون مدرسة جديدة للزراعة ومركزا صحيا ومخزنا للبيع وتعاونية ، لم يعد قائما من المنازل التي كانت في عهد ريتشو سوى أربعة أو خمسة منازل وما تبقى كان جديدا وجميلا .

ولقد اغتني الفلاحون في المزرعة التعاونية بعد أن أصبحت الارض تغل أكثر بكثير من السابق وغادر الفقر القرية الى الابد .

ليس بالامكان وصف حيرة هذا العجوز الراحل عن القرية منذ اثنين وثلاثين سنة الم يكن الفقر سببا لتسكعه طوال هذا العمر !.

لقد عمل في مناجم النحاس في دياربكر في تركيا ومعامل الشاي في ألمانيا وفي معامل ( شاغي ) في ايران وفي معامل النحاس في دانغان وفي تعمير طرق ( قازان ريج ) وفي بناء مقبرة ( شيراز ) .

لقد وهب صلابة ساعدية للعمل في كل مكان وهو لا يعلم بأن بلده أحق من الجميع بهذا الجهد .

واذا سألت ريتشو ميتيف عن سفراته لاغمض عينيه وأخذ يستجمع ذكرياته ويعد البلاد والمدن وأصحاب المعامل ليقف عند سنة ١٩٥٨ عندما كان يشتغل في بناء القاعدة الاميركية الحربية قرب طهران .

لقد كان يقف من الصباح الى المساء ورغم ذلك كان دوما يحث على العمل ، ولكن لمصلحة من ؟ انه ليذكر كيف وقع في أحد الايام عن الاسقالة بعد تعب مجهد لقد كلفته هذه الوقعة البقاء ثمانية أشهر في الجبس وسنتين في المستشفى اطاحا بكل ما يملك وبكل ما جمعه خلال اثنتين وثلاثين سنة ورغم ذلك لم يقعد عن السعي للعودة ثانية الى العمل ليجمع اجار العودة الى بلاده ولكن بدون جدوى .

خلال هذه السنين الطوال تقلبت عهود كثيرة على بلاده وفي الضبط في أيلول ١٩٤٤ كان التبديل جذريا فقد أصبح المواطنون سادة البلاد وأصبح العمال سادة المصانع واستعادت بلغاريا بفخر شخصيتها الدولية وأصبح بالامكان العودة الى الوطن .

وبعد أشهر وعن طريق الصليب الاحمر الدولي استطاع ريتشو العودة الى وطنه . وأخذ يفكر أي شيء سيأخذ لامرأته وأولاده الذين أخذ يتمثلهم قد أصبحوا بدورهم آباء .

لقد تذكر بأن امرأته كانت تحلم بآلة للخياطة فاشتراها وعد ما تبقى معه فوجد ان باستطاعته أيضا شراء قبعتين من القش وغذاء الطريق .

لقد ندم الآن على شراء هداياه ففي قريته وفي مؤسسة البيع يوجد أربعة أو خمسة أنواع من ماكنات الخياطة مما ظن وجوده مستحيلا وكذلك فقد وجد أيضا آلات خياطة تدار بالكهرباء . لقد شعر بالاسف على الاموال التي صرفها على التداوي فالطب في بلاده الآن مجاني .

عندما نزل في المحطة وجد سيارات النقل تنقل المسافرين فتذكر كيف كان في أيامه المشي هو وسيلة النقل الوحيدة بعد ذهاب العربة المجرورة على البقر .

وفي المساء عندما ركضت الام سوينزا الى المطعم وعندما التقى الزوجان العجوزان لم يستطيعا الكلام وكانت الدموع خير معبر عن فرحتهما .

# أبحري ...

**شعر ..**

موريس قبق





لا تشقي قلب المحار ، وطوفي في بحار أسماكها من حروفي
واستقلي مراكبا قرمزيات تزلجن فوق نصل رهيف
ربما تنبشين كنزا بدائيا خبيئا في قعر كهف مخيف
ربما ترشقين مرساتك السوداء في مرفأ الضباب الخريفي
وترودين شاطئا استوائيا تصبى غيمات ثلج نديف

★ . ★

كيف أرجوحة ببال هوائي تتصدى حتى لخفقة ريف ؟
وشبابيك مغلقات بصدري تلقف الضوء من شقوق الدفوف ؟
أي شيء أنا ؟ فتى بربري ينسل العرق هازئا بالنزيف
وصباح وراءه ألف سرب لا يبالي ارتحال طير أليف

★ . ★

أي منديل لوزة تفرز الدمع ، وأخرى تسوح عبر المصيف ؟
وأضاميم زنبق لوحتها شمس تموز بالسماء الخفيف ؟
أبحري ما يسوط تيارك العاني بغاء ، وجذفي عن رصيفي
زبد حبك المريب ، وسر يتعرى في هالة من طيوف
ستدوخين في الموانىء يوما ، وتعودين طوع أمري فطوفي ..

# الصحافة البولونية في الماضي والحاضر

## بمناسبة مرور ٣٠٠ عاماً على انشائها

اذ تحتفل الصحافة البولونية في عام ١٩٦١ بالذكرى السنوية الثلاثمائة لميلادها ، لا تكون بذلك أصغر عمرا بكثير من أول صحيفة مطبوعة ظهرت في أوربا . ولما كانت المجلة الباريسية المسماة لاجازيت التي ظهرت عام ١٦٣١ ( لا تسبقها ) بغير ثلاثين سنة أول اصدار للمجلة الاسبوعية البولونية ( ميركريوش أورديناسبيني ) فهذا السبق الزمني بكل تأكيد ليس عظيما . لقد اعتبرت هذه المجلة ـ وهي المجلة الاولى من نوعها في بولونيا ـ من بين أحسن المجلات التي كانت تصدر في أوربا ذلك الزمن ، ويرجع ذلك من جهة أولى الى المفاهيم التقدمية التي كان يحملها المسؤولون فيها ، ثم من جهة ثانية يعود الى حسن اخراجها الطباعي .

غير أن الصحافة حقيقة لم تزهر قبل النصف الثاني من القرن الثامن عشر . ومهما يكن من أمر ، فالصحافة السياسية قد وجدت ونشأت في لهيب .

ولكنه سرعان ما احتلت المركز التبادي ( صحيفة وارسو ) المحافظة و (صحيفة الشؤون الوطنية والاجنبية) التقدمية التي استطاعت بفطنة وذكاء أن توفق بين برنامج سياسي تقدمي وبين كل ما هو جديد في الاشكال الصحفية .

لقد خلق زوال الدولة البولونية ـ أي عصر التجزئة ـ في وجه الصحافة وضعية صعبة ومعينة . وكان لزاما عليها حينذاك أن تهرب فيما بين السطور الافكار السياسية للمقاطعات البولونية الثلاث ، فاعتمدت ، في سبيل ذلك ، الرموز والتلميحات والغمزات المبطنة ، التي كانت تؤلف وسائل مهمة في مهنتها .

حدثت نهضة الصحافة السياسية في غضون وثبة تشرين الثاني التي امتدت من عام ١٨٣٠ ـ ١٨٣١ . وابان ذلك كانت صحافة وارسو تضم ٤٠ صحيفة ومجلة غدت فيما بعد وسائل فعالة بيد الاحزاب السياسية تستخدمها في التأثير على الرأي العام . فما أن انكمشت وتزعزعت وثبة تشرين الثاني الآنفة الذكر حتى انتزعت صحف ( الهجرة العظمى ) التقليد العريق من صحف وارسو ، حيث كانت هذه حينذاك منهمكة في النضال من أجل بولونيا حرة . ثم ظهر الى الوجود في غضون خمسين سنة ٢٥٠ صحيفة متنوعة ، تسعى كلها أيضا الى التأثير في بولونيا عن طريق رسل سريين يهربونها عبر الحدود الى المقاطعات المختلفة لبولونيا المجزأة . وكانت تضم هذه المطبوعات فيما تضم برامج تنص على اصلاحات اجتماعية جذرية متعددة . هذا ولم تستأنف الصحافة نشاطها الفعال في وارسو وبوزان وسيليسيا وبوميرانيا قبل العقد الرابع من القرن التاسع عشر .

ان نشوء الحركات الثورية في ذلك الزمن أدى الى وجود صحافة متنوعة ومتعددة المناحي .

وأدى تطور الرأسمالية السريع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى تغيرات بعيدة الغور في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للناس .

ولقد كان الافق الفكري الفسيح يجد ، بدرجة معينة ، تعبيرا عنه في الشعبية الضخمة التي كانت تتمتع بها الصحافة آنذاك ، والتي لعبت بالمقابل دورا هاما في تبيانه وتطويره .

فبينما كان عدد الصحف والمجلات عام ١٨٦٠ في القطر البولوني لا يزيد عن ٨٤ ، نجد هذا الرقم قد ارتفع عام ١٨٧٠ الى ١٣٤ ، كما أنه قد ارتفع عام ١٨٩٠ الى ٢٢٥ صحيفة ومجلة .

لم تكن قراءة هذه الصحف مقتصرة على طبقة النبلاء ، بل كان من قرائها أيضا ، أبناء الفئات الاجتماعية الصاعدة الجديدة ، أمثال فئات المثقفين وفئات العمال . كما أثارت هذه الصحافة في نفس الوقت لدى الصناعيين وأصحاب البنوك رغبة عظيمة ، جعلتهم يعملون على توسيعها أكثر فأكثر معتبرينها وسيلة ملائمة في أعمالهم فظهرت لاول مرة في تاريخ الصحافة اعلانات وأخبار عن المضاربات التجارية في سوق البورصة .

ففي مستهل القرن العشرين دخلت البورجوازية البولونية المعترك السياسي بأحزاب سياسية قوية ومنظمة ، فأثرت تأثيرا جوهريا في السيماء الايديولوجي للصحافة . كما نشأت الصحافة الناطقة بلسان الاحزاب السياسية المختلفة ، والتي ألهبت من جديد أوار ( الخصامات ) السياسية .

ولا بد لنا في هذا المقام الا أن نلاحظ التطور الذي أصاب الصحافة الثورية العمالية التي تحتفل الآن بعيد ميلادها الثمانين ، هذه الصحافة التي لعبت دور المنظم للاحزاب اليسارية ، والتي أيقظت الوعي الطبقي عند العمال وعممت فيما بينهم فكرة النضال من أجل عدالة اجتماعية ٠ وقد شرعت هذه الصحافة نشاطها باديء ذي بدء في خارج البلاد وبين أوساط المهاجرين بعد أن تأسست في جنيف عام ١٨٨٧ تحت اسم ( المساواة ) والتي سميت فيما بعد ( البروليتاريا ) ٠ وظلت صحافة الطبقة العاملة تتطور حتى عام ١٩٠٠ متخطية في هذه المدة الرقم ( ٧٠ صحيفة ومجلة ) التي صار لها عام ١٩١٨ ٠

هذا وقد كان العدد الاجمالي للمجلات والصحف المختلفة في عام ١٩١٤ قرابة ١١٥٠ ٠

لقد تميزت فترة ما بين حربي القرن العشرين بتطور الصحافة البرجوازية ، حيث غدت جميع الصحف والمجلات في هذه الفترة خاضعة لمؤسسات رأسمالية ٠ كما كان بالامكان ملاحظة ظهور صحافة متأرجحة مشوشة لا تتخذ كما كان يبدو اتجاها سياسيا مميزا ٠ أضف الى ذلك ظهور صحف حكومية معينة ، وأخرى تنطق بلسان أحزاب سياسية وفئات متنوعة ٠ وقد كان عدد المجلات التي تصدر في بولونيا بين عام ١٩١٨ وعام١٩٣٩ يتراوح بين ٢٥٠٠ وثلاثة الاف ٠

فبالنسبة للصحف اليسارية وخاصة تلك التي تخص الحزب الشيوعي البولوني غير المرخص به ، فقد لاقت صعوبات في نشوئها وتطورها ٠ وبما أن الصحف المذكورة ظلت تتابع نهج الدفاع عن العدالة ، تعرضت لعرقلة وتدخل مراقبي الصحف ، ولهذا كانت تلجأ الى أساليب غير مشروعة لتتابع أعمالها ٠ ومع ذلك فقد نشأ عدد لا بأس به من الصحف الادبية والاجتماعية ذات المظهر الشرعي ، والتي كانت تسير بالهام اليساريين البولونيين ٠ وقد لعبت هذه الصحف في العقد الثالث للقرن العشرين دورا هاما في الحياة الفكرية للبلاد ٠

الحرب العالمية والاحتلال النازي لبولونيا فتحا صفحة جديدة في تاريخ الصحافة ٠ فالى جانب وجود الصحف النازية المحتقرة ، التي كانت تنعت من قبيل الازدراء ( بالزواحف ) ، شقت صحف سرية طريقها الى الوجود مثيرة الاعجاب من جراء تقدمها ونموها ، والتي فاقت بكثير ، وخلفت وراءها كل أشباهها من الصحف والمطبوعات في أوروبا ٠ فالتحقيقات الجارية حول معرفة كنه هذه الصحافة ومدى اتساعها لما تتم بعد ، غير أنه بالامكان أن نتصور عدد الصحف والمجلات المتنوعة ، اذ كانت قرابة ١٥٠٠ ٠

فاجتياح النازيين للبلد وتدميرهم اياه بشكل لم يسبق له مثيل ، قد تركه مفتقرا الى الآلات والطباعين والورق والاحرف الطباعية ، مما جعل بداية نشوء الصحف الجديدة بعد التحرير شاقة للغاية ٠ واضحى ـ والحالة هذه ـ لا بد من بذل جهود ضخمة لاعادة بناء الصحافة مجددا ، بالاضافة الى أنه كان ضروريا أيضا خلق صحافة من نوع جديد ، صحافة تنذر نفسها ، غير حريصة ، من أجل بناء نظام اجتماعي وسياسي جديد في بولونيا ٠

ان القائمة التي أصدرتها وزارة الدعاية والاستعلامات المتعلقة بعدد المجلات الدورية التي كانت تظهر في بولونيا عام ١٩٤٥ و ١٩٤٦ ، دلت على أنه في عام ١٩٤٤ كان يوجد في البلد ٣٧ مجلة وصحيفة ، حيث أمكن اعتبار ٢٢ منها فقط مطبوعات منتظمة ٠ ففي عام ١٩٤٥ حدثت قفزة تلقائية في الصحافة بالنسبة لكميتها ، وبعد الحذف الذي أصاب عددا قليلا من المطبوعات المؤقتة ، أنزل ما يقرب من ٣٣٢ صحيفة ومجلة في القائمة المذكورة ٠

نجد الآن في بولونيا طبقا للحقائق الاحصائية لشهر آب ١٩٦٠ خمسين صحيفة يوزع منها في اليوم الواحد ٥٣٣٥٣٦٨ نسخة ، ونجد أيضا ١١١ صحيفة اسبوعية بتوزيع اجمالي قدره ٧٧٥٧٨٣٣ نسخة ، كما يصدر أيضا ٤٨ مجلة تخرج كل أسبوعين بتوزيع اجمالي قدره ٢٠٢٤٠٢٧ نسخة ، ثم هناك مجلات شهرية توزع مقدار ٢٨٩١١٢٣ نسخة ، ونجد أيضا ١٤٥ صحيفة نصف شهرية وربع شهرية يقدر ما يوزع منها ب ٦٣٤٥٤٧ نسخة ٠

لقد وصل الاصدار السنوي الاجمالي من الصحف في عام ١٩٣٧ الى ٨٨٠ مليون نسخة لسكان كانوا يعدون ٣٥ مليون نسمة ، بينما يصل هذا العدد الآن الى ٢١٠٠ مليون نسخة من الصحف والمجلات ، تباع الى ما يقرب من ٣٠ مليون نسمة ٠

وانه لمن الخطأ التاريخي أن نتكلم عن الصحافة اليوم بالمعنى الحرفي للكلمة دون أن نأتي على ذكر الراديو والتلفزيون . كان لدينا عام ١٩٤٥ ما يقارب ١٦٨٢١٥ جهاز راديو .

والتقسيم الآتي يرينا كيف تتوزع هذه الاعداد طبقا للمواضيع المعينة التي تتناولها :

| | | |
|---|---|---|
| المجلات النسائية | وعددها | ٨ |
| مجلات الشبيبة | « | ١٦ |
| صحف الاطفال | « | ٦ |
| النشرات الرياضية | « | ١٥ |
| الصحف الكاثوليكية | « | ١٦ |
| وصحف متنوعة أخرى | « | ٤٧٥ |

وأصبح لدينا عام ١٩٥٨ ما يقارب ٤٤٦٥١٦٤ جهازا ، ( وكان لدينا على سبيل المثال والمقارنة عام ١٩٣٩ ما يقارب ١٠١٦٥٠٠ جهاز راديو ) . أما بالنسبة لعدد المستمعين ، فقد حصل فيه ازدياد ملحوظ وخاصة في المناطق الريفية ، ففي عام ١٩٥٨ كان أهل الريف يمتلكون ١٥٦٢٨٩٦ جهازا للراديو . وقد كان عدد أجهزة التلفزيون عام ١٩٦٠ ما يقارب ٤٠٠٠٠٠ جهازا ، هذا وينتظر أن يرتفع هذا العدد في السنة الحالية الى ٦٠٠٠٠٠ جهازا .

ان من أهم الملامح المميزة للصحافة البولونية ، هو أنها تدافع وتحمي المصالح الوطنية والاجتماعية لشعب بولونيا .

ويقتصر طبع ونشر الصحف والمجلات في بولونيا الشعبية على الاحزاب السياسية والمؤسسات والمنظمات العلمية والاجتماعية والدينية ، ولا يوجد هناك ناشرون فرديون يتولون نشر المجلات والصحف على حسابهم الخاص .

والصحافة في بولونيا تقدم جميع المعلومات المتعلقة بما يجري في داخل الوطن أو بما يجري في خارجه ، كما أنها تقدم المقالات السياسية والاقتصادية والثقافية ، ويعطي عدد النسخ التي توزعه الصحافة البولونية أحسن دليل على جماهيريتها ، وعلى أنها تمثل بالفعل عنصرا هاما في تقدم حياتنا .

لقد انضمت الصحافة في بولونيا الشعبية ـ منذ اللحظة الاولى لوجودها ـ الى الاتجاهات التقدمية التي وجدت منذ ثلاثمائة سنة والتي حاولنا وصفها هنا .

ان الستة عشر عاما من عمر بولونيا الشعبية ، قد فتحت أمام الصحافة مرحلة من التقدم جديدة وغنية ومتنوعة ، وانفتحت أمامها فرص جديدة وفسيحة لتزجي الخدمات للمصالح الوطنية الحقة . كما وقعت على عاتقها في الوقت نفسه أعمال كثيرة هامة ، وهي المساهمة في بناء الاشتراكية في بولونيا .

وليس ضروريا أن نكرر في هذا المقام ونقول ، ان الاشتراكية تعني أيضا اعادة تثقيف الناس بشكل أعمق، وتحويل وجدانهم الاجتماعي وتبديله ، كما تعني أيضا تغيير النظرة القديمة الى العالم .

وليس عجيبا أن تكتسب أهمية خاصة أعمال الناس الذين يوثرون بواسطة عملهم الخلاق في النفسية الانسانية ووعيها . وحين يريد هؤلاء الناس أن ينجزوا واجبهم هذا على أتم وجه ، عليهم أن يحاولوا باستمرار اغناء مؤهلاتهم الشخصية . وهذا هو الهدف الرئيسي لجهود اتحاد الصحفيين البولونيين .

وفحوى نشاط الاتحاد المذكور هو في تقديم الظروف الملائمة للصحفيين كي يرتفعوا بمستواهم الفني والمهني ، وحتى يعمقوا معارفهم عن المواضيع السائدة في أيامنا هذه . ثم من أجل تدريب موظفين آخرين جدد . وينفذ اتحاد الصحفيين البولونيين مهمته هذه معتمدا على المعاهد والنوادي المختصة بمثل مواضيع الاقتصاد والزراعة والسياسة الخارجية والمسرح والسينما والملاحة والتلفزيون وغيرها .. وكذلك يعتمد في انجاز عمله هذا على المراكز الثقافية ذات المستويات المختلفة والمعدة خصيصا للصحفيين .

ومن أجل الغاية نفسها يهتم اتحاد الصحفيين البولونيين في تنظيم تبادل الزيارات بين صحفييه وأعضاء لجان التحرير للصحف الاجنبية ، كما تنظم المعاهد والنوادي المتنوعة رحلات للتخصص .

ان اتحاد الصحفيين البولونيين يضم ما يقرب من ٣٥٠٠ عضوا ، وغاية ما يهم الاتحاد في هذا الوقت هو أن يجعل من بعض الصحفيين اقتصاديين يستطيعون أن يمدوا صحافتنا بالمواضيع الاقتصادية ، وأن يعودوا قراءنا على الشعور بالمسؤولية تجاه اقتصاد وطنهم .

# المجال الرحب

شعر : محمد كمال

فوق سفح من الفتون قشيب ... يتباهى بالسحر عند المغيب
شمت فيه سكينة وخشوعا ... بين صمت من المساء رهيب
لا صراع على المغانم يروي ... ضاقت الارصد من صداه الكئيب
لا نزاع لغاية في سباق ... لا امتهان لمحرمات الشعوب
واذا الناس يرتمون ذئابا ... تنقضي أعمارهم بالحروب
ليت شعري كم راحل صار في ... القبر ترابا ، ترابه من ذنوب

★ ★ ★

فتعالي الى الطبيعة يا نفس ... تعالي الى المجال الرحيب
قلدي رقصة النسيم وغني ... وتهادي مع الضياء وغيبي
قبلي جبهة الغروب هياما ... ليس أندى من الغروب الرطيب

★ ★ ★

كيف أصحو من الذهول وأمسي ... ذكريات رويتها بالطيوب
أي حلم من البعيد تراءى ... وتبدى كأنه من قريب
يا حبيبي انلتقي يا حبيبي ... فوق سفح من الفتون قشيب ؟!..

حلب ــ محمد كمال

# سميرة ..!

قصة بقلم : يوسف جاد عبد الحق

غادرت المنزل ، حقيبتي الصغيرة في يدي ، والدمع في عيني ، والاسى يعتصر فؤادي .

وودعتني ربة الدار عند عتبة الباب قائلة في صوت يبدو عليه انه تعود مثل هذا الوداع :

ــ « مع السلامة يا « سميرة » لا تتواني عن زيارتنا كلما استطعت ، ولا تنسي انك عشت بيننا زمنا غير قصير ، حتى أصبحت كواحدة منا » .

ظلت السيدة برهة واقفة عند عتبة الباب تشيعني بنظراتها التي كنت أحس بها رغم اني مولية اياها ظهري ثم ما لبثت أن صفقت الباب من خلفي ، فأحسست أن آخر ما بيني وبين الناس من وشائج قد انقطع .

لم تذرف السيدة دموعا لفراقي ، اذ لم أكن بالنسبة لها شيئا له من الاهمية ما تذرف من أجله الدموع . أنا لست ابنتها ، ولا أنا أختها . وهي لن تفقد شيئا بفقداني .. خادمة .. مجرد خادمة كالكثيرات اللاتي عملن عندها ، ثم تركن خدمتها لسبب أو لآخر ، وكانت تحدثني عنهن . فتذكر بعضا بالخير وبعضا بغير ذلك . كانت تذكرهن حتى دون ان تتذكر اسماءهن ، فكأنهن أشياء تافهة لا قيمة لها . كانت تتحدث عنهن بنفس الطريقة التي تتحدث بها امرأة ــ أي امرأة ــ عن ثياب أهملتها منذ زمن بعيد . لم تكن تلك الخادمات سوى « أشياء » عابرة في حياتها لا تترك أثرا يحتل موضعا في القلب أو ركنا من الذاكرة . ومن يدري ، لعلها لن تذكر اسمي أنا الاخرى فيما بعد على الرغم مما ظننته من مكانة لي عندها في وقت من الاوقات .

لم تذرف السيدة دموعا من أجلي حين صفقت الباب من خلفي وعادت الى مخدعها تنعم بالدفء والراحة وهدوء البال ، ولعل أكبر همها كان حينذاك وأعظم حيرة كانت تعانيها هي ، فيما يجب أن تعد لطعام ذلك النهار ، أو أين تقضي سهرة ذلك المساء . أما أنا فقد كنت في حال من الضياع والشعور الاليم بالقطيعة والوحدة مما لا سبيل الى وصفه . كنت كمن وجد نفسه بغتة في صحراء خالية لا حياة فيها . فراغ يحيط بي ويلفني من كل جانب .. ضباب يغيم أمام ناظري فيحجب المرئيات عن عيني . قلبي أحس به ثقيلا وكأنما تشده حجارة ضخمة الى أسفل فتوشك ان تسقط به الى الارض .

لا الناس الذين يذرعون الطريق من حولي ، ولا العربات التي تمر كالسهم من جانبي ، ولا الاطفال الذين يملأون أطراف الحي ومنعطفات البيوت بالصخب والضجيج ، لا شيء من ذلك كان يسترعي ذرة من انتباهي أو يصرفني عن الشعور بالضياع اذ لم يكن لذلك العالم كله من صلة بي ، كما لم يكن لي به أدنى ارتباط .

حتى هذه السيدة التي كنت أحسبها ذات قلب كبير ، رغم ما يبدو عليها أحيانا من مظاهر الكبرياء والتعالي على أمثالي من البسطاء . حتى هذه السيدة تخلت عني أخيرا . لكنها معذورة فيما أرى ، فليس ذنبها أن تضطر الى فصلي من خدمتها بسبب مرضي الذي كاد يعاودني بين الحين والحين ، حتى كانت تجد نفسها في كثير من الاوقات مجبرة بالقيام على خدمتي والعناية بأمري بدلا من أن أقوم أنا على خدمتها . وحين كنت أبرأ من سقمي ، أعود الى عملي فأجهد نفسي فيه مدفوعة بالرغبة في تعويض ما فات من تقصيري كي أرد للسيدة يدا بيضاء ، ولاقنع نفسي بأنني أتقاضى مرتبي المتواضع

عن جدارة واستحقاق ، فما كنت لانسى شعوري بالحرج حين أرى سيدتي تقوم على تمريضي وخدمتي ، ولكن ذلك كان يرهقني ارهاقا يعيدني الى فراش المرض من جديد .

كانت الريح عاصفة هوجاء ، حتى ان شعري أخذ يتطاير ويلتف حول وجهي وعنقي ، ويمر فوق جبيني وأهدابي فيمسح عن عيني قطرات الدموع التي تركتها تنساب على وجنتي دون ان أحاول منعها فقد كنت أعجز من أن امنعها ، وكانت الحقيبة التي تحتوي المتاع القليل الذي أملك في هذه الدنيا تتأرجح يمينا وشمالا فتوشك ان تطير من يدي ، ومعطفي الباهت الذي اعطتنيه السيدة في العام الماضي تعبث بأطرافه الريح ، ولا أحفل بأن ألم أطرافه فاتركه تحت رحمتها كمصيري .. سيكون يوما مطيرا كئيبا .. الغيوم داكنة معتمة تحجب زرقة السماء وتلف الكون بشعور مقبض حزين ..

هـذا يومي الاول .. أين أقضيه ؟ بل هذه هي الدقائق الاولى في حياتي الجديدة ، وها أنذا وجها لوجه أمام مصيري الغامض .. هل أنت قاس أيها القدر الى حد ان تدعني وحيدة شريدة تحت رحمة هذه الرياح العاصفة ؟ لا ملجأ ولا مأوى ؟ الا تمد لي يد العون ..؟ لقد تخلى البشر عني ، وللبشر أعذارهم التي بها يتعللون ويتذرعون ، كما ان لهم منطقهم الخاص الذي به يبررون قسوتهم .. حتى حين يظلمون اخوة لهم . انهم لا يعدمون المنطق في تبرير قسوتهم .. لكنك أنت أيها القدر لك منطقك أيضا .. وأنت لا تخضع لعوامل يخضعون لها ..

ولم يحر القدر جوابا .. لقد لزم الصمت هو الآخر . كأن الامر لا يعنيه في شيء . ورحت أبحث في عقلي الواهن عن حكمة يمكن أن تجنيها الحياة من وراء خلقي ، حين قررت أن أوجد . أجل لقد «وجدت» رغما عني في هذا العالم دون أن أدعى اليه ، ودون أن يؤخذ رأيي اذ لم يكن لي رأي ، لاني لم أكن شيئا قبل ذلك . لقد .. « وجدت » تلبية لرغبة قدرة خفية ، اجهل أمرها ، كما أجهل غاياتها في أمور كثيرة على رأسها أمر خلقي .. خلقي أنـا بالذات ، ووجودي في هـذا العالم . فأنا لا أذكر أنني قمت بدور كانت الحياة ستقف لو لم أقم به ، ولا أذكر أن كارثة كانت ستحيق بالكون ثم كان وجودي سببا في الحؤول دونها .. بل اني لواثقة تماما ان الدنيا كانت تسير كما تسير اليوم لو لم أوجد أيضا .. الشمس كانت ستطلع كل صباح وتختفي كل مساء .. القمر كان سيضي الكون كما يضيؤه في الليالي المقمرة .. كل شيء كان سيمضي على حاله ، ويسير في طريقه المحدد المرسوم سوى شيء واحد كان يمكن أن يتغير .. هذه الريح العاتية ، وهذا المطر المنهمر .. وهذا البرد القارس .. هذه كلها كان يمكن أن تختفي .. يخيل الي أنها نشطت اليوم عامدة لتزيد من بلائي .

لو لم تدفعني الاقدار الى هذا المنزل لكانت حياتي أقل بؤسا .. كنت في قريتي لا أعرف عن المدينة شيئا .. كنت أعيش ككل أهل قريتي .. عيش بساطة وكفاف ، لكنه عامر بالطيبة والدعة وراحة البال .. ويـوم جـاء أحدهم من المدينة القريبة وقرر أن يأخذني اليها لاعمل خادما في بيوتها ، كـاد الفرح يذهب بلبي ، وملأ التيه أعطافي ، ورحت أباهي لداتي واترابي ، وقد منيت نفسي بسعادة لا سبيل الى تصورها في بيئتنا الساذجة ، خيل الي أن أبواب النعيم قد تفتحت لي على مصاريعها دون سائر أهل قريتي . اذ كثيرا مـا سمعت في مجالس النساء ، حـين كنت طفلة غريرة أقعي الى جانب أمـي دون ان يأبهن لوجودي ، أو يفطن الى اني مأخوذة بكليتي الى حديثهن . كثيرا ما سمعتهن يتحدثن عن المدينة وحياتها البهيجة ، وترفها الساحر . حتى غدوت أحلم بها ليلي ونهاري ، وراحت أحلامي تكبر وتنمو مـع أيامي .. ويوم تحقق الحلم الكبير وأتيت المدينة بهرتني أنوارها ، وخلبت لبي مظاهر الترف فيها . ان ما كنت اسمع به لم يكن سوى صورة مصغرة ساذجة لما رأيت في الواقع . ومضت سنوات غيرتني ، وخلقتني خلقا جديدا ،

فرحت أقلد فتيات المدينة في كل شيء .. أقلدهن في ملابسهن ، وأقلدهن في طريقة حديثهن الناعمة وضحكاتهن المتكسرة ، وأحاكيهن في مشيهن الرشيق . وفي طعامهن وحتى في تقليم أظافرهن ، وتماديت في ذلك فبززت بنات المدينة أنفسهن ، حتى اسمي « البلدي » غيرته فأصبح « سميرة » بدلا من « هنيه » . وانقطعت صلتي انقطاعا أبديا بالقرية التي انجبتني حين انقطعت أمي عن زيارتها السنوية لمنزل مخدومي بموتها منذ أعوام ولحاقها بأبي .. وكان قد سبقها الى لقاء ربه بعد مولدي بشهور ..

ولم أكن أخش شيئا كخشيتي ان اضطر الى العودة للقرية لسبب خفي لا أعرف كنهه . كنت أخشاها كما يخشى المرء أن تنقض عليه صاعقة من السماء . أو كما يخشى تقي ورع عذاب السعير ، كان مجرد تصوري ذلك يطير صوابي ويفقدني عقلي ..

أنا « سميرة » أعود لاصبح « هنيه » ؟ يا للهول .. كيف أعيش بلا سينما .. كيف أحيا بلا راديو .. كيف استبدل مصباح الكاز بزر الكهرباء ..

والثياب الهفهافة الرقيقة الناعمة تبدى من جسدي أكثر مما تخفي ، وتبرز مفاتني وتزيدها فتنة وجمالا .. صدر ناهد وقوام ممشوق ، وحذاء عالي الكعب أخطر به وكأني أرقص على ايقاع موسيقى . كيف أسلوها واستبدل بها جلبابا مخططا وحذاء غليظا بشعا ، يجعلني أشبه بالرجال الغلاظ .. لا .. لا هذا لا يحتمل .. أعني التفكير فيه لا يحتمل .. أما وقوعه فهلاك محقق .. لا ريب في ذلك ..

واليوم ها أنذا أواجه مصيري .. كنت أخشى هذا اليوم كما يخشى المحكوم بالاعدام ساعة التنفيذ ، ولكن ها هي ساعة التنفيذ قد أزفت وما أسوأ الوقت الذي أختير لها . مريضة .. بائسة .. مقطوعة من شجرة .. لا صديق .. ولا قريب .. رباه ماذا أصنع ؟.

هل أعود اليها ؟ لا سبيل الى ذلك .. ليس لاني لا أطيق حياتها ، لا لهذا السبب ، فأنا اليوم أهون شأنا من أن أفكر في الرغبات ، ولكن لاني لا أعرف أحدا فيها يمكن أن يمد لي يد العون ، فقد كانت أسرتنا صغيرة فقيرة لا قرابة تربطها بأحد من أهل القرية ، وبموت أبي وأمي انقطعت أسباب معرفتي بكل من فيها .

ـ هل أبحث عن عمل جديد ؟

لا سبيل الى هذا أيضا .. لا لاني استنكف عن العمل في بيوت الناس .. لا لهذا السبب ، فلقد أصبحت خدمة الناس مهنتي . ولكن أحدا لن يبقي في منزله خادمة مريضة تحتاج « هي » من يخدمها ويمرضها ..!

ـ أفي طريق الغواية أسير ، فأنتقم من القدر ومن الناس أجمعين ؟

« لا » .. قلتها بحزم وعزيمة واستنكار ، قلتها وأنا ألمح طيف أمي ماثلا أمام عيني . وجهها يفيض طهرا وبراءة وحنانا ، وكأنها تذكرني بكلماتها ووصاياها التي كانت تلقي الي بها في الايام الخالية .

وذرفت عيناي مزيدا من الدموع ، وشعرت بحنين موجع الى ذلك الصوت الحبيب الذي اختفى منذ سنوات، وهفت نفسي الى ذلك الوجه الذي غاب وطواه الثرى . لكني أرى طيفها ، وأحس انها بجانبي تبسم لي ، وتربت وجهي بحنان ، وتمسح دمعة ترقرقت فوق أهدابي ..

ولا أدري الى أي مدى كانت قد حملتني قدماي حين أحسست بوهن يسري في أطرافي ، وحمى تحرق جسدي ، ودوار يعصف بي .. بينما قطرات المطر ما زالت ترشق وجهي وجبيني الملتهب .. ثم تلاشى كل شيء ، وأنا أهوي الى الرصيف ..

* * *

ووجدتني بعد زمن ـ لا أعرف مداه ـ مستلقية على فراش وثير ، في مكان هادىء ، اللون الابيض يسود كل شيء فيه .. والى جواري فتاة صبوح ممددة في سريرها أحدثها هذا الحديث ، وهي ترمقني بعينين حزينتين ، وابتسامة حنون ترف على ثغرها الجميل ..

يوسف جاد الحق

# همسة ثائر

شعر : كريم أحمد

يا عرب ، خاصمني الدخيل بلادي ... فأثرت في وجه العدو جهادي
ونفثت أحقادي بقوة ثائر ... لن استكين لقوة الاصفاد
لن أستكين لمن أراد لي الردى ... لن استكين لزمرة الاوغاد
فعمان أرض للعروبة معقل ... بدمي سأحميها وبالاولاد
ما كان قومي في ( مزون ) مطية ... للسالبين مآثر الاجداد
أو كان ( قيد الارض ) من عملائهم ... ويل لهم من غضبة الاحفاد
انا وان طال الفراق عن الحمى ... أرواحنا تهفو الى الامجاد
ان النفوس الشم يسعدها الردى ... ان نادت العلياء لاستشهاد
لبيك أرضي في الطليعة كلنا ... للذود وثابون كالاساد
حب العروبة في القلوب موطن ... في قوة الايمان والاطواد

كويت ـ كريم أحمد

# أنت حبي

شعر : ناديا نصار

أنت حبي ·· يايقظة الروح في الجسم ... ويا ثورة المنى في القلوب
يا مثار الهوى المصفق في النفس ... ونفسي أسيرة التعذيب
أنت ·· يا دفقة المنى بفؤادي ... وفؤادي مشاعل للهيب
أنت حبي ·· يا رفة الهدب في العين ... ودنيا مليئة بالطيوب
لا تسلني عن المشاعر وانظر ... ما بعيني واضحا ·· يا حبيبي
يعرف النور انني أعشق الفجر ... واني امل وجه الغروب
يعرف الزهر انني أعشق الطيب ... ورباه منعشي ومذيبي
حدث النجم والمشاعر والالهام ... عن خاطري بها ووجيبي
ان قلبي يفيض بالحب والنعمى ... وبالكوثر الشهي السكوب
كان قبل اللقا مريضا عليلا ... والتقينا فكنت أنت طبيبي

بانياس ـ ناديا نصار

# المنهج التجريبي في الدراسات الاجتماعية

بقلم : فيصل الحوراني

امتزجت الدراسات الانسانية - ومنها الاجتماعية - بالفلسفة في العصور المتقدمة من تاريخ الفكر الانساني ولم تنفصل عنها الا بعدما انشأ ابن خلدون علم العمران البشري - كما أسماه - وانتبه الى تميز المواضيع الاجتماعية عن غيرها فدرسها منفصلة وبوبها حسب تسلسلها الموضوعي وجعل منها دراسة تهتم بالانسان وعلاقته ببيئته •

ثم جاء « أوغست كونت » فارسى اللبنات الاولى لاسس علم الاجتماع الحديث ولكن أهم تطور أحرزته الدراسات الاجتماعية بصورة عامة جاء على أثر تقدم الاسلوب العلمي عامة واعتماده على التجربة في المواضيع الطبيعية والحيوية على السواء واخضاعه الانسان ذاته من جميع أوجه دراسته الى اسلوب البحث التجريبي •

وعلى هذا فان موضوع « البحث الاجتماعي » موضوع جديد في تاريخ المعرفة الانسانية وأجد شيء فيه هو المنهج التجريبي الذي هو موضوع حديثنا • ومع أن كلا من المنهج التاريخي ومنهج دراسة الحالة أصبح يعتمد وسائل علمية محضة سواء منها الطبيعية أو النفسية الا انهما - آخر الامر - لا يعدوان كونهما منهجيين وصفيين يقدمان معلومات حدثت فعلا دون ان يتدخلا في كيفية حدوثها •

ومن هذه النقطة بالذات تبدو أهمية المنهج التجريبي كطريقة علمية صرفة تنحو في دراستها منحى العلوم الطبيعية وتعتمد أساليبها وطرقها في البحث الذي يعتمد أكثر ما يعتمد على التجربة • وخاصة بعد أن تعقدت الحياة الاجتماعية في العصر الحديث مع النهضة الفكرية والتطور الصناعي الهائل وبروز كثير من المشاكل والظواهر الاجتماعية التي تحتاج الى حلول وتثير تساؤلات لا يمكن أن تجيب عليها الطريقة الانشائية أو الفلسفية المحضة •

فما هي التجربة ؟

انها - باختصار - الطريقة التي تمكنني من التحكم في مختلف عوامل ومتغيرات الظاهرة المدروسة لتقديم البراهين على صحة افتراض من الافتراضات أو عدم صحته ••

وهذا التعريف ينطبق على التجارب العلمية الطبيعية كما ينطبق على التجارب الاجتماعية مع ملاحظة اختلاف نوع العوامل والمتغيرات في الحالتين •

الا أن التجربة العلمية تمتاز على الاجتماعية بامكانية التحكم الدقيق في تعيين عواملها ومتغيراتها المختلفة وكذلك في امكانية قياسها قياسا صحيحا جليا بالوحدات المعروفة وبتوفر أدوات هذا القياس •

ومن هنا يتبين أن أهم الصعوبات التي تواجه التجربة الاجتماعية في الوقت الحاضر هي عدم امكانية التحكم في متغيراتها وعدم توفر أدوات القياس وسبب ذلك ان موضوع التجربة هنا ليس طبيعة مادية ثابتة يمكن ملاحظتها والسيطرة عليها وانما موضوع التجربة هو الانسان بعواطفه واتجاهاته وميوله التي لم يمكن حتى الآن اخضاعها للقياس الكمي ، ومع هذا يبقى المجال مفتوحا أمام الباحث الاجتماعي للاستفادة مما تقدمه الدراسات الاحصائية - الآخذة في التقدم - في مختلف مراحل التجربة الاجتماعية •

أما هدف التجربة الاجتماعية فهو الهدف العام لكل تجربة أي التحقق من صحة فرضية من الفرضيات أو

عـدم صحتها • وكمـا أن لتحقيق الفرضيات العلميـة تطبيقاتها في مجالات الخـدمة الصناعة فكذلـك يكون لتحقيق الفرضيات الاجتماعية تطبيقاتها في مجالات الخدمة الاجتماعية والاصلاح الاجتماعي وخطط التطوير • فاذا ثبت ـ مثلا ـ بالتجربة ان عرض أفلام قصيرة يفيد أكثر من التوجيه الاذاعي في مكافحة عادة ضارة في القـرى فيمكن للباحث الاجتماعي أن يوصي الدائرة المختصة بعرض هذه الافلام هذا بالاضافة الى الفوائـد النظرية التي تغني الفكر الانساني بمعلومات جديدة •

والطريقة المتبعة في التجربة الاجتماعية تبدأ بملاحظة الظاهرة المدروسة ملاحظة تعين أهم عناصرها ومتغيراتها ثم تطبق الخطة المرسومة للتجربة والتي يجب أن تتلاءم مع نوع الظاهرة •

ولنلاحظ ـ مقدما ـ ان لكل تجربة اجتماعية أربعة عناصر رئيسية هي :

١ ـ الجماعة التجريبية •
٢ ـ الجماعة الضابطة •
٣ ـ المتغيرات المدروسة •
٤ ـ المؤثرات الفاعلة في الجماعة التجريبية •

وللتجارب الاجتماعية أربعة أنواع :

أولا ـ التجربة البعديـة :

نختار جماعتين احداهما تجريبية والاخرى ضابطة ثم ندخل المؤثر ـ موضوع التجربة على الجماعة التجريبية فقط وبعـد مضي مترة من الزمن نقيس أهـم متغيرات الجماعتين وبعمليات حسابيـة بسيطـة نستطيع أن نعين التغير أو الاثر الذي كان سببه ادخال المؤثر على الجماعة التجريبية •

مثال ذلك نريد أن نعرف أثر ادخال منهج معين في التوحيد الصحي عـلى تطوير الوعي الصحي لـدى تلاميذ المدارس الابتدائية فنختار شعبتين من شعب الصف الخامس في مدرسة ما ونعتبر الشعبة ( آ ) جماعة تجريبية والشعبة ( ب ) جماعة ضابطة ثم نطبق المنهج موضوع الدراسة ـ وهو المؤثر ـ على الشعبة ( آ ) دون الشعبة ( ب ) وبعد انتهاء المدة المقررة ندرس درجة الوعي لدى كل من الشعبتين والفرق بينهما نفترض انه عائد لادخال المنهج الصحي في الدراسة •

هذه هي الطريقة البعدية في شكلها المبسط ولكن عند التطبيق العملي نلاحظ أن لها محاذير كثيرة فنحن من جهة لا نستطيع أن نجزم بأن التغيير الحاصل لم يكن سببه الا المؤثر المدخل في التجربة اذ قـد يكون نتيجة لمؤثرات أخرى خارجية لم ندخلها في حسابنا ومن جهة أخرى لا نستطيع أن نجزم بـأن الجماعتين التجريبية والضابطة كانتا ـ قبل التجربة ـ متكافئتين في كل متغيراتهما بالرغم من أن نوعية هـذه التجربـة تفترض ان تكون الجماعتان متكافئتين كل التكافؤ •

واختيار جماعات متكافئة يتم عادة باحدى ثـلاث **وسائل :**

آ ـ بالمزاوجة بـين أفراد الجماعتين : أي أن يكون الفرد الاول في الجماعة الاولى متعادلا في متغيراته الهامة ( السن ـ المسـتوى الاجتماعي ـ درجـة الثقافة •• الخ )

مع الفرد الاول من الجماعة الثانية وكذلك بالنسبة للفرد الثاني والثالث والرابع الى آخر الافراد •

وهذه الطريقة في الاختيار ـ في رأيي ـ خيالية من الناحيتين النظرية والتطبيقية اذ لا يمكن ايجـاد مجموعتين من الافراد تنطبق عليهم هذه الشروط •

ب ـ بالمزاوجة بين الجماعات ذاتها : بحيث نراعي ان تساوى متوسطات المتغيرات الهامـة في الجماعـة الاولى مع مثيلاتها في الجماعـة الثانيـة ويمكن لتسهيل التطبيق أن نختار الجماعتين وكل منهما له عدد من المستويات يساوي عدد مستويات الجماعة الاخرى وتتساوى متوسطات كل مستوى مع مـا يقابله •

جـ ـ بالتوزيع العشوائي : وواضح من العنوان انه يعتمد على الصدفة وثمة جداول عشوائية موضوعة يستطيع أن يرجع اليها الباحث المختص ويطبقها •

ثانيا – التجربة القبلية البعدية :

رأينا أنه في التجربة البعدية يمكن ان نواجهنا مشكلة كون الجماعتين متفاوتتين في متغيراتهما أصلا ولهذا نستطيع أن نستخدم نفس الجماعة كتجريبية وضابطة في آن واحد وفي المثال السابق نقتبس مستوى الوعي الصحي قبل ادخال تدريس المنهج الصحي المقرر وبعده – ومن هنا جاءت التسمية قبلية – بعدية – والتغير الحادث بعد التجربة يمكن نسبته الى تأثير المنهج الصحي • حيث يقل الى حد كبير أثر تدخل العوامل الاخرى في التجربة السابقة • ولكنا هنا أمام محذور من نوع جديد اذ أن تنبه التلميذ لكونه موضوع تجربة قد يتدخل سلبا أو ايجابا في النتيجة •

ثالثا – التجربة القبلية البعدية باستخدام جماعات ضابطة :

تبع هذا النوع من النجارب بقصد تلافي المحذورات الممكن حدوثها في النوعين السابقين • اذ اننا – هنا – نستعمل كما في التجربة البعدية – جماعتين اثنتين احداهما تجريبية والاخرى ضابطة ونجري القياس – كما في التجربة القبلية البعدية – على الجماعة التجريبية قبل وبعد التجربة ونحصل على النتائج بعمليات حسابية •

رابعا – التجربة المقارنة :

هذا النوع من التجارب يستخدم في حالة المقارنة بين الاساليب المختلفة في التوجيه او الاقناع أو الدعاية لمعرفة أكثرها جدوى ونحن هنا لسنا بازاء اسلوب جديد في التجريب وانما القصد – كما قلت – هو معرفة أكثر الاساليب جدوى وايهما يمكن أن نستخدم •

هذه هي أنواع التجارب التي يمكننا أن نتحكم في اختيار عناصرها وتوقيتها وثمة نوع آخر هو الذي نسميه :

التجريب الطبيعي :

قلت في أول هذا الحديث ان من أهم الصعوبات التي تواجه التجربة الاجتماعية هو عدم امكانية التحكم في متغيراتها • ولهذا يلجأ الباحثون الاجتماعيون عادة الى نوع من التجارب لا دخل لهم في تهيئة وقائعه بل عليهم فقط أن يلاحظوا ويسجلوا نتائجها :

وللتجريب الطبيعي مجالان رئيسيان :

المجال الاول : دراسة الطابع القومي لشعب من الشعوب بقصد مقارنته مع غيره وتحديد منزلة هذا الشعب بين الشعوب الاخرى ومعرفة درجة تطوره وتقدمه وفي هذه الدراسة تستعمل كثير من أساليب البحث الاجتماعي من ملاحظة مباشرة ودراسة للتراث الحضاري للشعب ومن تطبيق لانواع الاختبارات المختلفة •

المجال الثاني: حين تلم بمجتمع من المجتمعات كارثة ما تتهيأ للباحث الاجتماعي فرصة نادرة يدرس فيها سلوك الافراد وسلوك الجماعات ابان هذه الكارثة وهذه الدراسة بالغة الاهمية من حيث توضيحها لنوعية التصرفات الفردية من جهة ولمدى التضامن الذي يسود المجتمع من جهة أخرى •

وبعد هذه لمحة موجزة عن المنهج التجريبي وأبرز أساليبه قصدت من ايرادها أن ندرك في هذه الفترة التي يتمخض فيها مجتمعنا العربي عن امكانيات هائلة للتطور تستدعي منا نظرة جدية لكشف تناقضات حاضرنا وايجاد الحلول الجذرية المناسبة لمشاكلنا أقول قصدت أن يدرك القارىء أن ثمة أساليب علمية يمكننا أن نأخذ بها واثقين من أنفسنا ومواجهين لمشاكلنا بروح مسؤولة لا تتهيب من مواجهة المشاكل حين تدرك أن بالامكان حلها •

وقد آن لنا أن نترك نظرتنا الغيبية في معالجة أمورنا وان نأخذ بالاساليب العلمية مجتمعنا ونسهم من ثم في تطوير الحضارة الانسانية بالقدر الذي يتجه لامتنا تاريخها الخالد وامكاناتها الكامنة •

دمشق – فيصل الحوراني

# جنكيز خان

قصة بقلم : زكريا تامر

عندما ولد جنكيز خان ، لم يكن ينتظر رأسه تاج من ذهب ، فقد كان والده فقيرا ، لا يحترمه • وكانت أمه امرأة كهلة ، حزينة العينين ، لم تضحك مرة واحدة من القلب •

وقضى جنكيز خان طفولته في الازقة ، يلعب بالطين والحجارة • لكنه عندما أصبح شابا ، توج ملكا لان الجوع عذبه أمدا طويلا ، ولم يهزم حبه للشعر الشبيه بضحكة طفل • وكان دائم الابتسام رغم ان رغبة في البكاء تداهمه أحيانا دون سبب • ولقد أحب جنكيز خان الصبية الوديعة التي أختيرت لكي تكون أما لاطفال لم يأتوا بعد • وعندما تلاقى جسداهما لاول مرة في ليلة من الليالي ، تشبثت الصبية به ، وشدته اليها بضراوة ، وأحس جنكيز خان أن جسدها حيوان له آلاف الافواه والانياب والمخالب •

وغـادر جنكيز خان مخدعه في الصباح ، متجهم الوجه بينما الصبية مرتمية على السرير ، وقد أغمد في صدرها خنجر ذو نصل طويل •

وظل جنكيز خان صامتا مكتئبا طوال أيام كثيرة ، يتجول في أرجـاء قصره كشبح قاتم بلا رأس • وكان وزراؤه وأعوانه يرقبونـه بقلق وحـيرة ، فقـد اعتادوا الخضوع لمشيئة من أختاروه حاكما عليهم •

ووقف جنكيزخان ذات يوم بين وزرائه وأعوانه ، وكان كشجرة مقتلعة مـن ترابهـا ، ومثبتة في الفراغ بشكل سحري • وتكلم مصدرا أوامره الى قواد جيوشه بالمسير والانطلاق عبر العالم وهدم المدائن المنتشرة على وجه الارض •

وكان ثمة مدينة صغيرة بلا أسوار ، أهلها يؤمنون ان الله موجود في كل مكان ، ومقتنعون ان الله خلق من الملائكة عددا لا يحصى ، والملائكة من نور ، ولهم أجنحة بيضاء ، ولا تراهم عيون البشر • ويخضع كل شخص حي لمراقبة اثنين من الملائكة ، يسجلان حسناته ومساوئه • وعندما يموت الشخص ، توضع المساوىء والحسنات في كفتي ميزان ، والكفة الراجحة تقود الشخص الى جهنم أو الى الجنة • وجهنم نار محرقة تعـذب دون موت ، والجنة مكان جميل مكتظ بالاشجار الخضراء والنسـاء الجميلات وأنهر العسل والخمر واللبن •

وكان أهـل المدينـة مغرمين بالنراجيـل ، وتهتز رؤوسهم بنشوة لحظة تضرب يد ما على جلد دربكة •

وكانوا يركبون السيارات لانهم لم يكتشفوا الخيول بعد ، وكانت الخيول ما تزال متوحشة تعدو عبر البراري •

ولـم تجد جيوش جنكيزخان صعوبـة كبرى في اقتحام المدينة • وقتلت بضعة آلاف من السكان • وتطلع جنكيزخان بشـغف الى جثث المشنوقين وكأنهـا نجوم متألقة •

وفتشت المنازل ، وجمع الاطفال ثـم ذبحوا على ضفة نهر ، مياهه فقد لونها •

ومرت أشهر عديدة حافلة بالضجيج والمرح وصراخ ثم ابتدأ الهدوء يهيمن شيئا فشيئا ، واستعاد أهل المدينة حبهم للنراجيل والدربكة والحديث عن الفضائح وعن الله الموجود في كل مكان •

وبدأ الضجر يستولي على جنكيزخان ، وتغلغل في لحمه كمرض مخيف وغامض ، وقد دفعه ذات يوم لان ينبذ تاجه وملابسه ، ويتسلل متنكرا ، ويطوف المدينة كثعبان يفتش عن لحم يصطدم به • وحين أتعبه التجوال دلف الى داخل مقهى ، رواده مزيج من الشبان والفتيات وطلب فنجان قهوة • وكان ثمة أغنية تصعد من صندوق الموسيقى القابع في ركن من أركان المقهى •

وأخذ جنكيزخان يحتسي القهوة ، ويدخن بينما كان المغني رجلا يعول بصوت خشن جريح :

سأموت اذ تركتني

وطفق جنكيزخان ينفث دخان سيجارته ، ويتأمل بفضول فتاة جميلة ، قريبة منه • وكانت تهز قدمها بانسجام مع ايقاع الموسيقى الحارة ، وكانت يداها مرتميتين على سطح الطاولة الحديدية ، وكانتا صغيرتين شديدتي البياض •

وحملق جنكيزخان في يديه الكبيرتين الخشنتين ، وانهمر أسى غامض في دمه ، واشتد حنينه لسماع قصائد ينشدها صوت مبحوح أجش ، وأحس أن قلبه عصفور بلا جناحين ، يتوق لان يطير راحلا نحو البيت الذي ولد فيه ، وكان بيتا جدرانه من تراب ، وتنتصب شجرة نارنج في باحته • وتنهد جنكيزخان بارتياح ، وشعر شيئا فشيئا بأن طوفانا من دماء الاطفال ينأى عنه ، وتلاشت جثث المشنوقين من مخيلته •

وغادر المقهى وهو متأكد من ان جنكيزخان السفاح مات نهائيا ، ودفن في مكان قصي ومجهول ، وستظل جيوشه تنتظره دون جدوى •

وانتظرت جيوشه ، وبحثت عنه غير انه اختبأ بمهارة فلم تعثر عليه ، واضطرت أخيرا الى الرحيل • وراقبها جنكيزخان ببهجة بينما كان الغبار يتصاعد خلفها ثم انطلق عبر الشوارع وكأنه طفل ولد قبل لحظات ، فهو سيكون في الايام المقبلة رجلا ما مجهولا ، يحيا في مدينة صغيرة • وسيجد عملا • وسيقرأ الشعر في الاماسي • وسيحلم ، ويحب فتاة كطفلة كبيرة • وستكون محبة للياسمين والصيف ، وسيكون جسدها ضحكة عذبة ، وسيعيشان معا ، وستنجب أطفالا ، سيحبهم لانهم أولادها • وسيساوم البائعين بحماس حين يريد شراء حاجيات البيت •

وكف جنكيزخان عن التخيل اذا استرعى انتباهه حشد من الناس ، يتزاحمون حول باب أحد البيوت ، فاندس بينهم ، فاذا بامرأة تعول وتولول وهي تشير بيدها الى طفل صغير ملقى على عتبة الباب •

وأمعن جنكيزخان النظر الى الطفل الميت فوجد أن وجهه وأطرافه قد قرضتها الجرذان ، فتراجع مذعورا ، وأفلت من الزحام وهو يكبت رغبة ضارية في البكاء ممتزجة بغضب جارف أهوج • واندفع خارج المدينة فقد رجع جنكيزخان الى الحياة •

وتعالى هتاف الفرح من جنوده حين أبصروه قادما • وارتدى جنكيزخان دروعه ، ووضع على رأسه خوذة من فولاذ رامقا بهزء تاجه الذهبي • ولوح بسيفه آمرا جيوشه بالمسير الى أمام •

وعندما كان يصغي الى ضجيج رجاله الشبيه باعصار غاضب ، خيل اليه انه يبصر طوفان فولاذ مصهور ، يجتاح الارض كلها ، وحينئذ ابتسم بتشف •

وكانت الجنة ما تزال مكانا جميلا للغاية مكتظا بالاشجار الخضراء والنساء الجميلات وأنهر العسل والخمر واللبن •

دمشق ـ زكريا تامر

# الانسان والسلم والحرب

بقلم : عيد الفقير

الانسان ، هذا الانسان ، أذكى مخلوق في الكون، هو الذي يسيطر بيديه قصة قلقة ، واسطورة تمزقه في سفر الزمان • هو تائه أبدا في نوسان عنيف بين قبس شاحب من التفاؤل بالسلم ، ودياجير حالكة من تشاؤم مستطير وخوف مروع من الحرب • وان أمام البشرية في زمنها الراهن ، زمن الذرة والفضاء ، اما بداية أو نهاية • أما بداية لعصر جديد ، فيه بفضل الذرة عيش رغيد وسناء عميم ، واما حرب ، وفيه دمار مطلق وفناء تام وتلك هي النهاية • وفي هذا الاتون المتأجج بالاضطراب والجوف ، تجد شعوب الارض ، في كل مكان ، تتحشد متظاهرة ، محتجة ، رافعة أصواتها ، مستنكرة اتجاهات وافعال ساستها في المعسكرين الكبيرين ، الشرق والغرب الشعوب المحبة للحياة تطالب قادتها ان يعملوا في سبيل الحياة ، وهي تستنزل عليهم اللعنة الابدية ، لعنة الله والتاريخ ، اذا ما سولت لهم أنفسهم باذكاء نار الحرب • وكأنما قدت آذان قادتهم من صخر فما تسمع ولا تعي ، وكأنما تجوش ضمائرهم في نفوس من دمن فما تنبت سوى الجريمة ، وما تتكشف الا عن تفسخ الوجدان • وجدانهم الجشع الذي اتخمته المطامع وخدرته الانانية ألا ويلهم من قادة ، فما تزال مجزرة هيروشيما ومأساة ناجازاكي مرسومتين بالوانها الحمراء والدكناء في مخيلة الانسان • وما زالت مآسي هاتين المجزرتين الكبيرتين مائلة للعيان تبكي مدمع الزمان ، اذ شهدها الزمان ، وتخجل ضمير التاريخ اذ حواها التاريخ • ويثور الانسان ، وكيف لا يثور وهو المحب للحياة ؟ وأمام ضغط البشرية ، واستجابة للندآت الحرة ولاقلام المفكرين والادباء في شتى البقاع والامصار ، عقدت اجتماعات بين ممثلي الدول الكبرى ، لايقاف لتجارب النووية واستخدام الذرة في أغراض السلم ورفاهية الانسان • وفشلت تلك الاجتماعات ، حتى توجها الاجتماع الاخير بين العملاقين ( خروشوف ) و ( كنيدي ) • وكان هذا على ضفاف الدانوب الازرق ، وبين غابات فينا مدينة الموسيقى والجمال • ومن ذلك الفردوس الخالد ، من المكان الذي وضع ( جوهان شتراوس ) بين ربوعه الوارفة أجمل الحانه وأروع ما عرف العالم من قطعات الفالس ، تفاءل الناس ، وحملوا ان يسمعوا انشودة السلام وفالس الطمأنينة يصد حان بين جنبات الكون يرقصان أبناءه ويطربان اطياره • فاذا بالفرحة ترحة ، واذا بالعرس مأتم ، وبالسلم وهم وسراب • فلقد برزت مشكلة برلين من جديد واستفحل أمرها • وراحت الدولتان الكبيرتان تحشد قواها وتزيد بالمبالغ المرصودة باسم الدفاع ! ثم عادت روسيا وتبعتها أميركا الى التجارب النووية ومشت البشرية من جديد على سراط أدق من الشعرة فوق هوة الحرب •

هذا هو الانسان ، وهذا هو السلم والحرب ، في عصرنا الراهن ، وما ذلك سوى تواتر متشابه لفترات مضت من تاريخ البشرية على الارض بين السلم والحرب • فالانسان مذ خلق الانسان وكان ، في تناوب مستمر ، بين فكرة الانسانية المتمدينة ، وما تضمنه هذه الفكرة في طياتها من قيم الجمال والحق والخير ، وبين المفهوم الانكليزي الوقح « الانسان ذئب الانسان » • حتى أن واقع البشر ، في مجال الزمان وأحضان المكان ، قد دفع ببعض الناظرين في فلسفة التاريخ الى القول أن الحرب هي الحالة الطبيعية وما السلم سوى فترة تحضير لها • فهل هذا صحيح ؟ هل يجدر بنا • نحن الذين نعيش في مدرسة العلم ، ونهتدي بنور الفكر والهامه ، أن ننظر

الى احداث التاريخ سطحيا كما نظر هؤلاء ؟ وهل يجب أن نستعيد تلك الاحداث المجرمة ، التي لطخت صفحات الزمان بالدماء وأفعمتها بالمآسي ، كما تستعيدها الشاشة البيضاء الجامدة ، بدقائقها ، والوانها ، وأصواتها ، وتتابعها ، دونما شرح وتأويل ؟! كلا ! ونحن نربأ بأنفسنا • علينا أن نتفهم تلك الاحداث الجسام وأن ندرس أسبابها القريبة والبعيدة ، وان نشرحها للانسان لنجنب الانسان شر الانسان ، شر نفسه •

لا يكمن خطر الحرب في الذرة وقنابلها ، ولا في الصواريخ ورؤوسها ، ولا في الاساطيل وحممها • لا يكمن الخطر في عالم المادة ذاته • فلتملأ الارض على رحبها مستودعات وأدوات ابادة وافناء ، فاننا لا نتوقع ان تتحرك تلقائيا وسائل الفتك والقتل والتدمير ، أو ان تنطلق بذاتها ان لم يحركها بشر وان لم يطلقها انسان • عالم المادة عالم جمود مطلق ، عالم حيادي الصبغةالارادية والاخلاقية • فالاخلاق تتمثل في الانسان في اضافة الثقافة والتربية على طبيعته كانسان • ولا تصدر اللاخلاق الا من الانسان • انما الخير والشر متفاعلان متصارعان في معين واحد هو نفس الانسان • ومشيئة البشر هي التي تستطيعأن تقرر المصير المفجع ، وهي التي ترسم ، النهاية الاليمة ، وتختم قصة الحياة ختام مأساة مجرمة لا تبقي ولا تذر • وارادة الناس هي التي تستطيع أن تجعل السلم دائما والسعادة مستقرة أزليا ، ما دامت حياة واستمر وجود • هنا ، وهناك ، في أعماق ذواتنا وفيأغوار نفوسنا تتوارى دوافع الشر والجشع والطمع ، كما تستقر القيم الرفيعة السامية ، وتتفاعل المفاهيم الانسانية النبيلة • فلا خلاص من الحرب ، ولا مناص من وقوعهما ، ان لم تصلح نفوس البشر بالتربية وما لم تتحلى تلك النفوس بالنية السليمة التي تدفع البشر الى السعي ، في كل ركن من أركان الكون ، لجمع الضمائر ، ضمائر الافراد وضمائر الجماعات ، في بوتقة واحدة ، هي بوتقة الحب النقي ، حب الانسان لاخيه الانسان • ولا سبيل لان يسعد الفرد ويرفل في رياض الامن والطمأنينة ان لم يعتبر أخاه الانسان غاية لا وسيلة ، وتلك الغاية كامنة في الصبغة الانسانية التي يتصف بها الفرد من أبناء جنسه • هذا هو السبيل الى الحياة وحسب ، وما عداه فسبيل مفجع ومميت • التربية وحدها ، اذن ، هي المسؤولة عن مصير البشرية في الكون • فهي التي تبث في الافراد معاني الحب ، وهي التي تعلم الافراد كيف يتسامون ويتسامحون فيترفعون عن الاهواء الرخيصة والمكاسب العاجلة • وهي التي تعلمهم كذلك كيف يكرهون ويحقدون ويضمرون الشر وكيف يدمون الضميرالسمح المعطاء • وفي أفياء الجماعات وظل الاجتماع واحتكاك الافراد والجماعات يتصل الناس ببعضهم ويتفاعلون وفق عوامل أربعة هي:الصراع والتنافس والمواءمة والتعاون • وهي عوامل تحدد علاقة الافراد ببعضهم وتدفعهم اما الى الحب والخير أو الى الكراهية والشر •

يندفع الافراد ، في الصراع ، الى توجيه طاقاتهم وتسخير امكانياتهم لهدم وايذاء مزاحميهم ، بغية حذفهم من مجال الصراع وازاحتهم عن طريقه لنيل الهدف بكامله أو الحصول على أكبر قسط منه • أما في المنافسة فانما يعمل الافراد في سبل متوازية متسابقين شطر هدف واحد مشترك ، حيث يحاول الفرد سبق الوصول اليه أو الفوز بنصيب الاسد منه • وتعني المواءمة اما تخلي أحد المتنافسين أو المتصارعين عن حقه ، وانسحابه نهائيا من الميدان ، أو في ان يقبل السير متخلفا عن الركب وتابعا يرضى من الحصة بنصيب الثعلب • أما العامل الرابع ، عامل التعاون فانما تغيب فيه نزوات العدوان وتختفي من آفاقه عواطف الكراهية والحقد ويعمل الافراد في هذا العامل بجهود متناسقة ، وضمائر متعانقة ، حيث يشعر الفرد بشعور أخيه ، وحيث تتناغم الانفس بانسجام ، فتشيع أواصر الاخوة وتقوى وشائج المحبة ، فيحبالفرد لاخيه ما يحب لنفسه •

أبرز العوامل الاربعة ، هو الصراع • وهو في التفاعل الاجتماعي ، كالبحيرة تنصب فيها وفود العوامل الثلاثة الاخرى • حتى ان التنافس ، هذا العامل المرجح

في التربية ، ينقلب غالبا الى صراع ويؤدي الى نتائج مماثلة لنتائج الصراع • ويجدر بنا أن نتعمق النظر في طبيعة عامل التعاون وكيف يشيع بين الافراد • ان هذا العامل نادر الوجود في الكيان الاجتماعي ، وهو عامل تظهر فيه الكلفة وتستتر تحت برقعه الغائية النفعية • فلا تعاون بين أفراد ينتجعون منهلا واحد ويسيرون نحو هدف واحد • وانما نجد الفرد يختار من يتعاون معه من مجال لا يمت بصلة للمجال الذي يسير فيه • وما لتعاونه هذا من قصد سوى ليستمد العون على قضاء حاجاته وتحقيق مآربه ، أو ليستند على من يتعاون معه في القضاء على منافسيه في مجالات صراعه • الصراع اذا ، هو العامل البارز في آفاق الاجتماع وفي ظل التفاعل البشري ، وهو الذي تتمخض عنه باقي العوامل الثلاثة ، فهل الصراع غريزة أصيلة في طبيعة الانسان ؟

قال ذلك بعض المفكرين • وان ما قالوه لهو الخطأ الفادح • فلقد دلتنا دراسة الاقوام البدائية التي ما زالت تعيش هذا العصر ، في بعض بقاع الارض ، عيشة بدائية أولية تشابه حالة الانسان قبل التاريخ ، ان كافة الميول الانسانية ، وجميع الحوافز الاجتماعية الموجودة في مجتمعاتنا الحاضرة كالميل الى التملك ، والى توكيد الذات وحب السيطرة ، والميل الى القتال والصراع ، ما هي الا ميول مكتسبة بالتربية • هي ميول ناجمة عن التجارب الحية ومنبثقة عن التفاعل مع البيئة • هذا وانها لم توجد لقيمتها الذاتية المطلقة ، وانما وجدت في الاصل لانها وسائل لارضاء الرغبات ولارواء الحاجات الطبيعية • فلو توصل المجتمع الى ان يحقق للفرد ارواء هذه الحاجات بشكل سلمي ودونما ضغط ونضال ، لامتنع النضال ولزال الصراع من فيافي الاجتماع • واني لست أبالغ اذا قلت ان الميل الى التجمع ، هذا الميل النبيل الخلاق ما هو الا نتيجة حتمية لعجز الوليد البشري عن قضاء حاجاته الضرورية لاستمرار وجوده ، وعن طفولته الطويلة الامد نسبيا •

اذا ، فالحرب ، أو داء الصراع بين الافراد والمجتمعات ، هو داء كامن في أصول التربية • تلك الاصول التي ينشأ عليها الافراد مذ صغرهم • فعلى القيم التربوية ، تلك القيم التي تطبع المادة الانسانية الخام بطابع عصره ومجتمعه وبيئته ، تلك القيم التي توجه الانسان في سلوكه نحو الانسان ، يقع عبء الحرب وترتكز دعائم الشر ، كما ويمكن ان تقوم عليها دعائم السلم والطمأنينة •

اننا لا نجد الآباء الذين يقولون لاولادهم ، بصريح العبارة ، أقتل فلانا أو آذي فلانا • ولم نسمع كذلك بمرب أو موجه يحث على ايذاء الغير • بل ان كل مرب في الكون وعبر التاريخ ، انما يحث على اخلاق تعاونية فيها التسامح والمحبة • وهو اما ان يستقي ذلك من الاديان المنزلة ، أو من المذاهب الاخلاقية المبنية على أسس فلسفية تأملية • فكيف تنقلب الاخلاق ،والتعليمات التربوية التعاونية المفعمة بالمحبة والتسامح ، الى غدر ولؤم وصراع ؟

انما نجد هذا الانقلاب منبثقا على عامل التنافس بالذات ، فهو العامل المحبذ في التربية ، وهو الذي يحتل الصدارة في تربية الاجيال على مسرح الكون • ومن التنافس ينبع الصراع وتتفاقم قوى الشر • ذلك اننا لا نجد مفهوما نقيا واضحا لمعنى التنافس ، ولا نستطيع أن نضع له التعريف الدقيق ، شأنه شأن جميع المفاهيم المجردة الاخرى • ولذا نجد في هذا المفهوم مجالا واسع الارجاء لاعاصير الاهواء والنزوات • وفي رحب هذا المفهوم الذي يضم مختلف التجارب الحية ، تلتقي أفراد كانوا قد أنشئوا على أسس تربوية مختلفة • وبما أن نظرة كل فرد الى الحياة والكون ، والى المفاهيم المختلفة المجردة تختلف عن نظرة الآخرين وبما ان لكل شخصية حياتها الخاصة التي لا تماثلها حياة شخصية أخرى أبدا فان معنى التنافس عند هذا الخليط التربوي معنى قلقا مضطربا ، عريض الآفاق يضم بين جوانحه كأبرز ما يضم

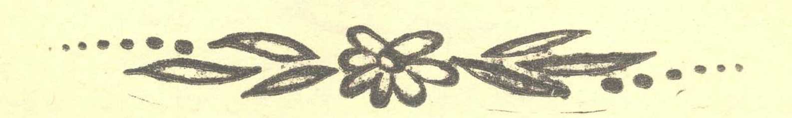
شتى معاني الجشع والطمع ولا يؤدي هذان بدورهما الا لدفع الانسان لايذاء الغير وحسب .

أنا لست أنادي بحذف التنافس من الاصول التربوية ، وانما أود أن يتعلم النشء الانساني كيف يتحلى بالنية السليمة والنفس المحبة المتسامحة ، الى جانب شعوره بضرورة بذل الجهد في سبيل الابداع والفوز . انني أطمح الى غرز عامل التعاون البناء في نفس كل طفل الى جانب تعليمه حب التنافس ، وان نفهم الانسان انه اذا هدم أخاه فانما يهدم نفسه . وقد صدق تتشيه حين قال « لا تهني تهن نفسك » . وفي الحقيقة فان أنبل وأسمى ما نشعر به في حياتنا نحن بني الانسان ، هو ذلك الجهد الوجداني الذي يبذله الفرد ابتغاء جميع الضمائر وتوحيدها على منهل الالفة والمحبة . فالحب نبع فياض كريم يتدفق بالخير ويتفجر بمعاني الحق والعدالة ويسمو بالانسان فوق الغايات ويحلق به فوق الحتمية المادية . وما حياتنا الاجتماعية سوى سلسلة متراصة حلقاتها الافراد ، كلما زاد التجاذب بين ذرات مادتها قويت حلقاتها وأشتد تماسك مجموعها . أما اذا تحطمت حلقة فانما تنفصم سلسلة الحياة وينقص من ديمومتها المتكاملة جزء له وظيفته النافعة وقيمته الايجابية. فليس من المنطق في شيء ان يهدم بعضنا بعضا ، وليس من العقل أبدا أن يسقط الافراد من مجالات نشاطهم نشاط اخوانهم الساعين العاملين في ذات السبيل . ولينظر الانسان في نفسه ، يجد فيها ضميرا انسانيا مرهفا حساسا يبكي لبكاء الطفل ويبتسم لابتسامه ويتألم للألم ، ويفرح للفرح . نعم ان في اعماق نفوسنا روابط قوية ، وأواصر وشيجة ، تجمعنا ، نحن البشر في كل مكان ، وتوحد ضمائرنا ، فكأنما تصهر الافراد جميعا كلا موحدا ، نفسا شاعرة متبادلة العواطف تعيش على أرض واحدةوتستظل بزرقة سماء واحدة . فكيف نتصارع !؟ كيف يهدم بعضنا بعضا ؟ أو لسنا نكسب أكثر وأكثر اذا ما تعاونا ؟ أو لسنا ننجح بالوصول الى أهدافنا المرجوة اذا ما تآلفنا وآزر الفرد أخاه ، وشد عضده ، وقوم اعوجاجه بالخير واحب له ما يحب لنفسه ؟

هذا هو السبيل الوحيد الى منع الحروب . السبيل هو الحب والتعاون في ظل ضمير عالمي سخي كريم ، ولا رجاء مطلقا من المعاهدات وما أسهل نقضها ، ولا احترام للتواقيع الدولية اذا كانت نفوس من يوقعونها أنانية ، ولا أمل البتة في تجنب ويلات الدمار ان لم تصلح النفوس بالتربية ، بظهور جهد تربوي عالمي يسعى لان يعرف الانسان ان سعادته ليست في أن يشبع رغائبه ويروي نزواته وحسب ، بل في أن يتكامل ويحب . سعادته ، في الالفة ، في المشاركة الوجدانية ، في التطلع دوما الى جمع الضمائر وتوحيد الوجدان .

أخي الانسان في كل مكان ! أنت حبي ، أنت اصالتي في أعماق ذاتي . أنا ان هدمتك فانما هدمت نفسي . ان أهنتك أهن كرامتي وان أحببتك فالحب حبي نابع من قلبي وهو قلبك ، وان أخلصت اليك فهذا اخلاصي ، وان ضمرت لك النية السليمة ، ضمرتها لوجودي فأنت وجودي ..

**عيد الفقير**






● **يصادف يوم الرابع والعشرين من شباط المنصرم ذكرى مرور ستة أعوام على وفاة الشاعر الشاب الاستاذ زهير ميرزا واسرة الثقافة التي تحزنها هذه الذكرى الاليمة لما يربطها بالفقيد الغالي من صلة وثيقة تقدم اليوم الى القراء كلمة شقيقة الفقيد على الصفحة ٣١ من هذا العدد. وتفضلت بها السيدة هند ميرزا مشكورة وأسرة المجلة تشكر السيدة الفاضلة اذ تسأل المولى أن يتغمد الفقيد برحمته ورضوانه •**

● رزق الاديب السيد **عبد العزيز العطار** مولودة جميلة أسماها ( **رنده** ) جعلها الله من بنات السعادة وأقر بها عيون والديها الكريمين •

● **يعكف الدكتور حسن كلشي استاذ الادب العربي في جامعة بلغراد على تأليف كتاب مفصل عن الادب العربي المعاصر • وقد اتصل الدكتور كلشي بالاستاذ سعد صائب وطلب اليه تزويده ببعض مؤلفاته الادبية فبعث اليه بكتبه التالية :**
**آن الاوان ـ مع الفجر العربي ـ صراع مع الغرب في حضارته وتياراته الفكرية •**

● « اشعار من رامبو » منتخبات للشاعر الرمزي الفرنسي رامبو • و « عفوا يا كوشكا » مجموعة قصص معربة سيصدرهما صالح درويش قريبا •

● **قريبا سيصدر عن دار الثقافة بدمشق مجموعة شعرية بعنوان « أغاريد » للشاعر المعروف أحمد علي حسن •**

● وقيد الطبع أيضا في دار الثقافة في دمشق قصة طويلة بعنوان « زهرة في قبر » للكاتب الاديب محفوظ أيوب •

● **يصدر قريبا للشاعر نديم محمد مجموعة شعرية بعنوان حطام ، ورواية « ضحية النجوم » والجزء الثاني من « آلام » •**
**وله تحت الطبع « رفاق يمضون » •**

● موريس قبق ، يصدر ديوانه الاول الحب واللاهوت قدم للديوان الشاعر كمال أبو ديب •

● **مجموعة قصصية جديدة « أكثر من الحب » تصدر قريبا للاديبة منور فوال • وقد علمنا ان بعض قصص هذه المجموعة ستحول الى تمثيليات اذاعية •**

● كمال أبو ديب ينتهي قريبا من اعداد ديوانه الثاني « الرفض والصليب » •

● **فيليب عبد الحق يعد مجموعته القصصية الثانية « كل شيء الا الحقد » • ومن المنتظر ان تطبع في احدى دور النشر في بيروت •**

● أصدرت دار الثقافة في دمشق كتابين جديدين للاستاذ سعد صائب الاول بعنوان : هيولى قصائد لشاعر هولندا « اختربرغ » •
والثاني « شعراء فنلنديون » ويضم (١٦) شاعرا وشاعرة من فنلندا •
وسيكون لهذين الكتابين شأنهما في تلقيح أدبنا العربي بدم جديد لم يكن له به عهد من قبل •

● **محمد عماد الدين الدالاتي يعد رسالة فريدة من نوعها ، تتضمن استقصاء معلومات عن أصل عائلة الدالاتي ، وهل تنحدر من جد واحد •**
**لا شك أن هذه الرسالة ستكون الاولى من نوعها في الادب والتاريخ •**

● « بيتنا والشتاء » مجموعة شعرية ستصدر قريبا للشاعر تيسير حاج حسن سطاس • عن دار الثقافة في دمشق •

● **يقول الاستاذ البير أديب في دردشة مع احدى محرري مجلة الجمهور ليس من شعر حديث ولا من شعر قديم فكل عطاء جميل هو شعر •**
**أنا أتذوق قصائد كتبت من الف عام كما أتذوق قصائد كتبت اليوم • وقد لا أستسيغ قصائد كتبت حديثا كما قد لا أستسيغ قصائد وضعت قديما •**

**أما بخصوص العامود الشعري فانني لا أجد الوزن والقافية لانني - وهذا رأي شخصي اعتبر ان الوزن والقافية قيدان مسبقان لتجربة الشاعر التي يود التعبير عنها .**

● **أقامت السفارة البولونية معرضا للوحات الاعلانية في المتحف الوطني افتتحه وزير الثقافة والارشاد والاعلام السيد فؤاد العادل .**




**صورة تمثل لوحة معروضة في المعرض عن فيلم هنري الثامن .**

● قررت وزارة المعارف في العراق الاشتراك في الموسم الثقافي الذي تقيمه كلية المعقول والمنقول في جامعة طهران . وقد انتدبت الدكتور مصطفى جواد الاستاذ في كلية التربية ببغداد لتمثيلها والقاء بعض المحاضرات .

● **يصدر الجزء الاول من أضخم موسوعة عن القصة في العراق ، خلال الربيع المقبل في ( ٤٠٠ ) صفحة . وهي من تأليف جعفر الخليلي ، من رواد القصة في العراق المؤلف يؤكد أن العراق كان مهد القصة العربية منذ أقدم العصور .**

● القاص العراقي مهدي عيسى الصقر منكب على كتابة رواية عراقية طويلة .

● **حيدر الحوماني انتهى من كتابة روايته الجديدة « شيء للذكرى سيدفع بها قريبا للمطبعة .**

● اهدى الفنان سعد الطائي اتحاد الادباء العراقيين لوحة فنية عنوانها « السجن » .

● **يصدر قريبا في بغداد « قصائد من القلب » . مجموعة شعرية لسلمان الجبوري ، و « النافذة » مجموعة قصص لمحمود الظاهر . و « مشاهد القرية » ديوان شعر لحامد العزي . و « عودة الربيع » مجموعة شعرية للشاعرة لميعة عباس عمارة .**

● ( الكتاب ) مجلة شهرية ثقافية تصدرها قريبا جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين في بغداد .

● **شنت الحكومة الاردنية حملة واسعة على المطبوعات والصور المنافية للاخلاق والتقاليد العربية . وبمداهمة بعض المتاجر والمكتبات التي تقوم ببيع المجلات والصور الخليعة سرا ، وصادرت ما عثرت عليها .**

● « فتاة من مهبط الوحي » اسم الكتاب الذي ستصدره قريبا السيدة « لطيفة الخطيب » في المنطقة السعودية الغربية .

● **تصدر قريبا مجموعة شعرية بعنوان « عندما تشرق الشمس » للشاعر محمد سعيد المسلم .**
**و « دراسات » في المذاهب الادبية للاديب السعودي محمد حسن عواد .**

● انتهى القاص أحمد عبد الحميد من طبع قصته « عاصفة في الافق » .

● **عبد القدوس الانصاري ، صاحب مجلة « المنهل » الشهرية ، يكاد ينتهي من كتابه الجديد « تاريخ مدينة جدة » .**

● قال الدكتور طه حسين تحت عنوان « التجديد في الشعر » :
ليس على شبابنا من الشعراء بأس فيما أرى من أن يتحرروا من قيود الوزن والقافية اذا تنافرت أمزجتهم وطبائعهم ، ولا يطلب اليهم في هذه الحرية الا أن يكونوا صادقين . »

● **صدر ديوان ( الناي الجريح ) في الحسكة للشاعر الشاب مروان الخاطري .**
**تهانينا للاستاذ مروان الذي أضاف الى قيثارة الشعر المقدسة نغما جديدا ، في وتر من حناجر العنادل .**

● يصدر قريبا عن دار الحياة في بيروت رواية ( خميس عذب ) وهي الجزء الثاني من ( شارع السردين المعلب ) . ويصدر أيضا عن دار الآداب مسرحية ( لكل حقيقته ) لبيراند يللو . كما يصدر عن المكتب التجاري في بيروت مسرحية ( اسرى التونا ) لجان بول سارتر الكتب الثلاثة من ترجمة الزميل جورج طرابيشي .

# نشاط ثقافي عربي

الشاعر الفرنسي رينه تافرنيه سئل خلال زيارته لبيروت منذ بضعة أشهر عن رأيه في الموجة الشعرية الجديدة في فرنسا فقال :

تتنازع الشعر الفرنسي اليوم تيارات كثيرة فالشعر الموزون المقفى يعيش متحابا مع الشعر الحر والشعر الانتقالي .

فأراغون مثلا ما يزال حريصا الى حد ما على القوالب الكلاسيكية . بينما « ايف ده بون فوا » يسير بالشعر المنثور على غير هوادة . وهناك « سان جون برس » الذي ينظر الى الشعر نظرة خاصة . فأبياته هي آيات أكثر مما هي شعر مألوف . وهو ينهج نهج كلوديل .

ومهما يكن من أمر فقضية الشكل الشعري لم تعد واردة بالنسبة الى الشعر في فرنسا . فلكل صيغته الخاصة . والقارىء الفرنسي لا يهتم كذلك بالصيغة انما يوجه كل عنايته الى المضمون الشعري .

● **قريبا ستظهر مجموعة كاملة من أشعار « فيكتور هيجو » التي كتبها في جزيرة جرسين أيام منفاه .**

● صدرت الى الاسواق المسرحية الشعرية « وداعا يا غرناطة » لفقيد الشعر الاسباني « فريدريكو غارسيا لوركا » صاحب الكلمة الحلوة المرتوية من الف زهرة من حدائق غرناطة ، غرناطته التي غناها أروع الشعر المضمخ بأرج الحب واللهب والنور ، والحرية ، التي قضى دفاعا عن حرمتها ، وذودا عن كرامة الوطن .

● **« ديوان الشعر الاميركي » مجموعة تضم منتخبات من قصائد الشعراء الاميركين القدامى والمعاصرين .**

**ومن أبرز هؤلاء الشعراء « والت ويتمان » الرائد الاول للشعر المنثور ، لا في امريكا فحسب بل في العالم كله .**

**والجدير بالذكر أن جبران خليل جبران وأمين الريحاني قد تأثرا بأسلوب ويتمان الشعري . ومنهما سرت موجة الشعر المنثور في البلاد العربية .**

● يقول بعض النقاد : ان أروع أثر شعري ظهر في أوربا في هذا العصر هو المجموعة الشعرية النثرية « أنا وحماري » للشاعر الاسباني « خوان رامون خيمينيس » لما في أسلوبها من نصاعة وبساطة واشراق ولما تحوي من روح انسانية نبيلة عالية ، ولما تضم من عمق وفلسفة في الحياة .

● **يعتبر « اليوت » الشاعر السباق في العصر الحديث . وقد رفعته قصيدته الشهيرة « الارض اليباب » الى أعلى قمة وصل اليها شاعر .**

**ففي هذه القصيدة وفي قصيدة « الرجال الجوف » جسد « اليوت » شعور الخيبة وعقم الحضارة كما كان سائدا بين مفكري فترة ما بين الحربين العالميتين .**

**وقد تمثلت له الحياة صراعا مستمرا بين الخير والشر، فراح يعبر عن مشاعره على لسان أحد أبطاله مسجلا التوتر الحاد للزمن الذي عاش فيه .**

**وقد ركز اهتمامه على الشكل في الشعر واستعمل ما أسماه البديل الموضوعي وهو استخدام كلمة أو رمز ما**

---

● **سعد صائب بدأ بتأليف كتاب بعنوان ( عباقرة الفن ) يتحدث فيه عن عمالقة الفن الثلاثة ( ليوناردو دافنشي ـ ميكيل آنج ـ رافائيل ) . وسيضم الكتاب أشهر لوحات الفنانين الثلاثة . كما وان الاستاذ سعد قد سحب مخطوط كتابه ( لوسيان ـ الكاتب الساخر ) من احدى دور النشر في بيروت . وقدمه الى وزارة الثقافة والارشاد القومي في دمشق لتعمل على طبعه . لا سيما وان هذا المخطوط هو الاول من نوعه في العربية . اذ يحكي حياة الكاتب ( لوسيان ) المولود في مدينة ( سيمساط ) على الفرات في القرن الثاني للميلاد ، مع نماذج من محاوراته التي عدت فاتحة عهد بتاريخ المحاورة الادبية بعد افلاطون .**

● سليمان عواد ، من أسرة مجلة الثقافة واحد محرريها ، رزق والسيدة الفاضلة عقيلته بمولودة جديدة أسمياها ( هزاز ) جعلها الله واخوتها الثلاث : روضة ، شيراز ، رياض من أبناء السعادة ، وجعل كل أيامها ربيعا وعطرا ..

**يلخص بايجاز وعنف مجموعة من الافكار والاحداث الماضية · والتي تختصر الابعاد كلها ·**

● في أواخر عام ١٩٦١ ظهرت في مكتبات باريس قصائد فيكتور هوجو في مجلد واحد يضم جميع أبيات هذا الشاعر المبعثرة في دواوين كثيرة والمعرضة للضياع· ولا شك أن جمع أبيات ( هوجو ) البالغ عددها ( ١٥٣٨٧٣ ) بيتا في مجلد واحد ، بعد أن كانت مبعثرة في أكثر من عشرين جزءا لهو مفخرة من مفاخر دور النشر الفرنسية · وقد اعتبر معرض الكتاب في فرانكفورت جمع أبيات ( هوجو ) في مجلد واحد من أعظم ما قامت به دور النشر في أوربا ·

● **نشرت مؤسسة هاشيت في فرنسا مؤخرا كتابا من الحجم الكبير عدد صفحاته ثلاثمائة وبعنوان ( تاريخ الفكر الغربي ) · الف هذا الكتاب الفيلسوف البريطاني ( برتران رسل ) الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٥٠ · وقد تناول فيه المؤلف التطور التاريخي للفلسفة في المدنيات الغربية منذ أن نشأت هذه المدنيات في اليونان حتى عصرنا الذري هذا ·**

**يزين هذا الكتاب أربعمائة صورة تساعد على فهم جميع النصوص الفلسفية ·**

● ظهر في أوربا كتاب بعنوان ( فرانز ليتز ) لمؤلفيه ساشاريل سيتويل وهو دراسة عن الموسيقي الشهير ( ليتز ) وانتاجه وعن الاوساط التي ترعرع فيها منذ طفولته · وفي هذا الكتاب تحليل لشخصية ليتز بأسلوب يبتعد فيه عن استعمال الكلمات الفنية الجافة · واستعراض لحياة ليتز منذ ولادته قبل قرن ونصف القرن في مدينة مجرية صغيرة الى أن وافته المنية ، حين انهى حياته في خدمة الكنيسة والدين ·

واستعرض الكاتب أيضا الانتصارات التي أحرزها ليتز في حقل التأليف الموسيقي وينوه بحداثة سنه عندما أحيا أول كونشيرتو في سن التاسعة وأحب لاول مرة في سن السادسة عشر ·

● **صدر كتابان جديدان للاديب غاستون باشولار · الاول بعنوان ( لهب الشموع ) والثاني ( تخيلات فيلسوف مقفل ) · وقد أحرز الكتاب الثاني جائزة الآداب الوطنية لعام ١٩٦١ في فرنسا ·**

● الاديب اليوغوسلافي ( ايفو اندريتش ) الذي فاز بجائزة نوبل عام ١٩٦١ قد أبدع ايما ابداع في وصف البؤس والظلم والاقطاعية ، الآفات التي نخرت صدر الشعب في بلاده أصدق تصوير · وذلك في مجموعتيه القصصيتين ( اكس بونتو ) و ( جسر فوق نهر درينا ) · وهو يمثل النزعة الانسانية العميقة في أغلب كتاباته ، في اكمل قالب وأروع صورة ·

● **كان برنارد شو لا يخرج من داره الا القليل · فحدث ذات ليلة أن دعي الى سهرة التقى فيها ببعض المعجبين به وبعض الحساد · وأتاه رجل فقال له : أنا أعلم ان أباك كان خياطا ، فلماذا لم ينجبك خياطا مثله ؟ فأجابه برنارد شو بهدوء ، كان أبوك جنتلمان ·· فلماذا لم ينجبك جنتلمان مثله ؟ ·**

● بدأت في بيروت سلسلة من المحاضرات عن الاديب الايطالي « دانتي » بأشراف جمعية « دانتي اليفييري » التي يرأسها الدكتور ماريو مونتووري مدير المعهد الثقافي الايطالي في بيروت ·

وقد افتتح الدكتور ماريو هذه السلسلة من المحاضرات الادبية بتوطئة عن حياة دانتي مسجلا بذلك لاديب فلورانسا المكان الاول الذي احتله في تاريخ الفكر العالمي·

وبعد أن اسهب الدكتور ماريو في شرح ديوان دانتي « الكوميديا الالهية » خلص الى القول :

ان ديوان دانتي أحاط بكامل الوجود ·· السماء والارض ·· المادة والروح ·· الحياة الزمنية والحياة الابدية ·· وهزت قصائده الفكر البشري بما اشتملت عليه من خصائص الذكاء المجرد والواقعية المعقولة ·

● **صدر كتاب للكاتب الروماني غورغيو ترجمته الى اللغة الفرنسية الكاتبة ليفيا لامور ·**

● وعن دار فلاماريون صدر كتاب رجل الصيد للكاتب بول فيالار ·

وهو قصة حياة يكرسها صاحبها لاحدى الهوايات ·

● **وظهرت أخيرا المؤلفات التالية ـ المانيا : شاري الاولاد تأليف جون هيرسي وينقد الكاتب في كتابه اسلوب التربية الحديث في ألمانيا والكتاب من منشورات دار ستوك ·**

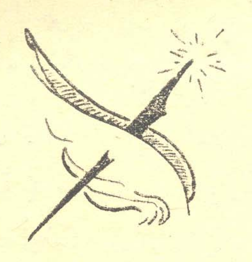
# اعلان عن دار الثقافة في دمشق

تنوي دار الثقافة في دمشق اصدار كتاب يضم قصيدة لكل شاعر من شعراء سوريا كتاريخ لحركة الشعر في سوريا في هذه الفترة ، فعلى الشعراء الراغبين بالمساهمة في هذا الكتاب أن يختاروا أحسن قصيدة لديهم ويرسلوها الى دار الثقافة في دمشق ص٠ب ٢٥٧٠ في مدة أقصاها نهاية شهر آذار الحالي ٠

ثم تشكل لجنة لاختيار القصائد ومناقشتها ، وعند الموافقة على قصيدة تتصل دار الثقافة بالشاعر صاحبها ، لطلب بعض المعلومات التي سوف تكتب عنه مع قصيدته ، لذلك يرجى ارفاق القصيدة بعنوان الشاعر ٠

ملاحظة : لا يشترط في القصيدة أي تحديد سواء من حيث الشكل أو المضمون كما أنه يسمح للقصائد المكتوبة بلغة أجنبية الاشتراك بالديوان ٠

دار الثقافة في دمشق
ص٠ب ٢٥٧٠



● قصة امرأتين لم تسمحا للقدر أن يعبث بمصيرها بل تمكنتا من اخضاعه لمشيئتهما لغلاون ٠

● **المؤلفات الفنية ٠**

● بيكاسو حياته وانتاجه كتبه رولان بزوز موضوع الكتاب التاريخ كما تصوره ريشة بيكاسو ٠

● **طبع باشراف مارسيل أو بيرت كتاب يبحث في النحت والفن المعماري عندما كانت هذه الفنون تستوحى من الايمان ٠**

● المؤلفات المسرحية ٠

● **صدرت عن دار سلوك ثلاث مسرحيات عاطفية لبول جيرالدي ٠**

● المؤلفات القصصية ٠

● **ماجدولين دي ميديسيس قصة تتناول حياة امرأة ( من مقاطعة افينيون ) ولدتها سيدة من عائلة ميديسيس من أب مجهول ٠**

● من أشهر المؤلفات التيصدرت في عام ١٩٦١ كتاب ديوغراتيا تأليف ميشال سيرفان ٠

● **وفي الاتحاد السوفييتي صدر كتاب الاحياء والاحداث للكاتب سيمونوف ٠**

● قصة شعب وتقاليد أمة هو الكتاب الصادر عن الحياة في الهند بقلم جان فيليوزان أستاذ في الكوليج دي فرانس ٠

# الكتب المجرية في الخارج

**قررت السفارة الهنغارية اقامة معرض للكتب الهنغارية الباحثة في مختلف العلوم وذلك بدءا من العشرين من شهر آذار الجاري ونظرا لما لهذه الكتب من أهمية ستعرض بصورة جد موجزة لمحة عن الكتب .**

نستطيع أن نقول بدون رياء بأن الادب المجري قد ساعد كثيرا في اغناء الادب العالمي .

ورغم رضوخ هنغاريا طويلا لنظام اقتصادي واجتماعي متأخر فقد استحق الادب الهنغاري اعجاب الجماهير وبعد تحرر هنغاريا فقد أولت الادب الكثير من اهتمامها لتزيد من شهرته .

فمنذ عام ١٩٤٥ وبالتخصيص بعد عام١٩٤٨ أخذت طباعة الكتب الهنغارية تحتل مكانها لتنال في العالم شهرة قائمة على صدق المواضيع ، واناقة الطباعة وضآلة السعر مما جعل لهذه الكتب شهرة حتى في العالم الغربي .

ان الترجمة تحتل مكانها البارز أيضا ومثال ذلك فالادب الهندي يحتل أكثر من عشرين ( ترجمة ) . وحق الاولوية دوما للقصص الطويلة وأضف اليها أيضا نشر الثلاث ملاحم المترجمة عن السنسكريتية .

ان المشتركين في الندوة التاريخية التي أقيمت في استوكهولم أعاروا الدراسات التاريخية المجرية الكثير من الاهتمام .

وقد قرروا ترجمة مؤلفين تاريخيين هنغاريين الى اللغات الافرنسية والانجليزية والروسية .

وكثيرا من الكتب العالمية من رياضية وغيرها أخذ طريقه الى دور النشر الاوربية من انجليزية وفرنسية وغيرها .

وعندما نذكر الكتب الادبية لا يسعنا الا ان تقف عند اسم الشاعر الاكسندر باتوفي هذا الشاعر المجري الذي خلد المجر في قصائد ملهمة مبدعة .

ولد هذا الشاعر الكبير في عام ١٨٢٣ وبدأ شيطان الوحي يغزو رأسه عام ١٨٤٣ لينشد للعالم أجمل القصائد ولكن الموت سرعان ما اختطفه بريعان شبابه وهو يدافع عن بلاده بسلاحه كما دافع بشعره في موقعة سيجسفار عام ١٨٤٨ . وفي ديوانه المترجم الى اللغة العربية كثير من الشواهد على خلود هذا الشاعر .

وما دمنا في معرض الشعر لا يسعنا أيضا الا نذكر بفخر الشاعر المعاصر اتيلاجوزيف ذاك الشاعر المميز بصراحته وصدق تعابيره وثوريته .

وكذلك الكثيرون مثل ايمر ماداش في مأساة الانسان وزيغموند موريسز في العائلة والرجل السعيد .

لم يترك أدباء المجر بابا من الابواب الفنية والادبية والعلمية الا وأبدعوا فيه ولن نطيل الكلام فيهذاالموضوع اذ لنا اليه عودة . وانما ندعوكم مع الحكومة البلغارية الصديقة لزيارة معرض الكتب في العشرين من آذار في المركز الثقافي العربي .

**والكتب التي ستعرض هي :**

**١ ـ كتب أدبية تبحث في الشعر والقصة .**
**٢ ـ كتب علمية تبحث في الرياضيات والعلوم .**
**٣ ـ كتب فنية تبحث في الرسم والنحت وغيره .**
**٤ ـ كتب طبية وغيرها من الكتب العلمية .**